


سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ
٧٤



بصيرة الداعي إلى خير المساعي

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين





سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ (٧٤)

شرح

بصيرة الداعي إلى خير المساعي

منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى



للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛

يُرجىٰ المراسلة علىٰ البريد التالي: Abdellahdj24@gmail.com



الحمد لله الَّذي نفع برؤُوس العلم جماعةَ المسلمين، وأوْرَثَهُم بِها نورَ الإيمانِ وبَرْدَ اليقين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ محمَّدٍ عبْدِه ورسوله خاتَم النَّبيِّين، وعلىٰ آله وصحبِه أجمعين.

أمَّا بعدُ:

فَهذَا شَرْح (**الكتاب الخامس**) مِنْ برنَامجِ (**رؤوس العلم**) فِي (**سنتِه الأولى**)؛ سبعٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ وثَمانٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ، وهو كتابُ «**بصيرة الدّاعي إلى خير المساعي**»، لـمُصنِّفه صالحِ بنِ عبد اللهِ بنِ حمدٍ العصيميِّ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلمْ أنَّ أعظمَ ما أمرَ اللهُ به: التَّوحيدُ، وأعظمَ ما نَهىٰ عنه: الشِّركُ، والتَّوحيدُ هو أوَّلُ واجبٍ علىٰ العبدِ، ويُبدَأُ به قبلَ غيرِه مِن المأموراتِ حتَّىٰ الصَّلاة.

ويجب علىٰ العبدِ الخوفُ مِن الشِّركِ، فإنَّه أَخْوَفُ ما يُخاف منه عند مَن عرفَ قُبحَه وسوءَ عاقبَتِه، واعتبِرْ بدعاءِ الخَليلِ - وهو مَن هو - أن يُجنِّبَه اللهُ وبَنِيه عبادةَ الأصنام؛ فكيف بغيره؟

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ابتدأ المُصَنِّف - وفَّقه الله - كتابَه بالبسملة مُقتصِرًا عليها؛ اتِّباعًا للوارد فِي السُّنَّة النَّبويَّة فِي مكاتباته ومُرَاسلاتِه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المُلوك.

ثمَّ قال: (اعلمْ أنَّ أعظمَ ما أمرَ اللهُ به: التَّوحيدُ، وأعظمَ ما نَهىٰ عنه: الشِّركُ)، فإنَّ المأموراتِ والمَناهي الشَّرعيَّةَ مُرتَّبةٌ فِي درجاتٍ، فلِلْحسنات درجاتٌ، وللسَّيِّئات درجاتٌ، فالحسنات فيها الفَرضُ والنَّفلُ، والسَّيِّئات فيها الصَّغيرة والكبيرة، وأعظمُ الحسناتِ هو توحيد الله، وأعظم السَّيِّئات هو الشِّرك بالله.

ولمَّا كان الأمر كذلك كانَ أعظمَ مأمورٍ أمرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به هـو التَّوحيد، وأعظمَ مَنهيٍّ نَهىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه هو الشِّرك، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النِّساء: ٣٦].

فإنَّ الآية المذكورة تدلُّ علىٰ أعظميَّة الأمرِ فِي التَّوحيد، وأعظميَّة النَّهي فِي الشِّرك من وجهين:

* **أحدهما**: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قدَّم الأمرَ بالتَّوحيدِ والنَّهيَ عن الشِّركِ علىٰ سائر ما ذكرَه مِن آية الحقوق العشرةِ، وإنَّما يُقدَّم المُقدَّمُ.

* **والآخر**: أنَّ الله عطفَ عليهما ما بعدَهُما، فقال: ﴿ وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [النِّساء: ٣٦] إلىٰ كمال الآية، والمعطوفُ من باب التَّوابِع، والتَّابع تابعٌ، فكلُّ أمرٍ أمرَ الله به هو تابعٌ للأمر بالتَّوحيد، وكلُّ نَهيٍ نَهىٰ الله عنه فهو تابعٌ للنَّهي عن الشِّرك.

ثمَّ قال: (والتَّوحيدُ هو أوَّلُ واجبٍ علىٰ العبدِ)، فأوَّلُ ما يتعلَّق بذمَّة العبدِ لُزومًا جازمًا، وفرضًا مَحتومًا، هو توحيدُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وكونُ التَّوحيد أوَّلَ واجبٍ علىٰ العبدِ نوعان:

* **أحدهما**: **كون الأوَّليَّة فيه حقيقيَّةً**، وهذا فِي حقِّ الكافر إذا أسلمَ؛ فإنَّ أوَّل ما يُطالَب به الكافِرُ إذا أسلَم هو توحيدُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

* **والآخر**: **كونُ الأوَّليَّة فيه حُكميَّةً**، وهذا فِي حقِّ مَن نشأ فِي بلاد المسلمين منهم؛ فإنَّ ما يُخاطَبُ به مِن الأمر والنَّهي كالوضوء والصَّلاة من المأمورات، وتركِ الكذب

والغِيبَة وأشباهها مِن المنهيَّات فِي حال صِغَرِه تابعٌ لأمره حُكمًا بتوحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذْ لو لمْ يكن مُوحِّدًا لم يُقبَل منه عملٌ.

ثمَّ قال المُصَنِّف: (ويُبدَأُ به قبلَ غيرِه مِن المأموراتِ حتَّىٰ الصَّلاة)؛ أي يُقدَّمُ الأمر بالتَّوحيد علىٰ سائر المأمورات حتَّىٰ علىٰ الصَّلاة المعظَّمةِ شَرعًا فِي القرآن والسُّنَّة، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا بعث معاذاً إلىٰ اليمنِ قال: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ**...» الحديثَ. متَّفقٌ عليهِ[1]، فجعل النَّبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الأمرَ بتوحيد الله مُقدَّمًا علىٰ الأمر بأعظم الأركان العَمليَّة وهي الصَّلاة.

ثمَّ قال: (ويجبُ علىٰ العبدِ الخَوفُ مِنَ الشِّركِ، فإنَّه أَخْوَفُ ما يُخَافُ منه عند مَن عَرفَ قُبحَه وسُوءَ عاقبَتِه).

فسلامةُ العبدِ فِي خوفه من الوُقوع فِي الشِّرك؛ **وذلك لأمرين:**

- **أحدهما:** قُبحُه فِي نفسه.
- **والآخر:** سوءُ عاقبته.

فأمَّا قُبحُه فِي نفسِه: فَلِمَا فيه مِن مَسبَّة الله وتَنقُّصِه، وعدمِ المبالاة بحقِّه، وهو الإله الحقُّ الَّذي لا يُعبَد سواه، فله المُلك والخلق والرِّزق وتدبيرُ الأمر، فهو الحَقيقُ بأن

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٩٥) (١٤٥٨) (١٤٩٦) (٤٣٤٧) (٧٣٧٢) ومسلمٌ (١٩) من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

يكون المعبودَ.

وأمَّا سوء عاقبته: فذلك أنَّ كلَّ ذنبٍ يُذْنِبُه العبدُ علىٰ رجاءِ مغفرةٍ إلَّا الشِّرك؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: ٤٨].

ثمَّ أرشدَ إلىٰ الاعتبارِ بحالِ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الَّذي هو خليلُ الله؛ أي البالغُ غايةَ التَّحقيق فِي توحيد الله حتَّىٰ صار لله خليلًا، فهو أعظمُ الخلقِ مع رسولنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تحقيق التَّوحيد، وحالُه الَّتي كان عليها: هي الخوفُ من الشِّرك، فإنَّه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم].

ويَعظُمُ هذا الأمرُ فِي نفسِ المَرءِ إذا كان الدَّاعي بِهذا إبراهيمُ؛ **لأمرين**:

* **أحدهما**: أنَّ إبراهيمَ دعا ربَّه (أن يُجنِّبَه الله وبَنِيه عبادةَ الأصنام)؛ أي أن يُباعِدَ بينَه وبين عبادة الأصنام هو وَوَلدُه، والدُّعاء بالتَّجنيب إنَّما يكون مِمَّا يُخَاف ويُحذَر.

* **والآخر**: أنَّ الدَّاعي بِهذا إبراهيمُ الَّذي حطَّمَ الأصنامَ، فإذا كان مُحطِّمُ الأصنامِ بفأسِ التَّوحيدِ يخافُ أن يقعَ هو وبَنُوه فِي الشِّرك (فكيف بغيره؟)، قال إبراهيم التَّيميُّ: «مَن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيمَ؟». رواه ابن أبي حاتِمٍ فِي «تفسيره»[1] وغيرُه.

فإذا كان إبراهيمُ بِهذه المنزلةِ يخافُ علىٰ نفسه الشِّرك، فأين مَن يقولُ: التَّوحيد فهمناه؟! وأين مَن يقول: لا خوفَ علينا من الشِّرك؟! وأين مَن يقول: لا يُعقَل أن يقع الإنسانُ ذو العقلِ فِي الشِّرك؟! إلىٰ آخر أحَابِيلِ الشَّيطان ومكائِدِه الَّتي نَصَبها للنَّاس لِيَصدَّهم عن توحيد الله بإضعافِ الخوفِ من الشِّرك، فصار أمرُ الشِّرك هيِّنًا علىٰ

(١) (٧/ ٢٢٤٩).

النُّفوس، وإذا هان علىٰ النَّفسِ دخَلَها، وإذا عظُمَ علىٰ النَّفس عجزَ عن دخولِها؛ لأنَّ الخائفَ لا يزالُ يجعلُ نفسَه فِي حِصنٍ يحتاطُ به مِن غائلةِ الوقوع فِي الشِّرك.

وأمَّا الآمِن من الشِّرك الَّذي يُسَلِّي نفسه بِهذه الدَّعاوىٰ - الَّتي ذكرنا - فإنَّه يتسلَّل إليه الشِّركُ حتَّىٰ يقعَ فيه.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلمْ أنَّ دينَ الإسلام كاملٌ، وأنَّ الله رضيَه لنا؛ فلا يَقبَلُ مِن أحدٍ دِينًا سواه، فالأديان كلُّها باطلةٌ إلَّا الإسلام.

فالدِّين الحقُّ هو ما جاء به الرَّسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأهواء والبدعُ ليست مِن دينه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِن أعظم النِّعم: نِعمةُ الإسلام والسُّنَّةِ والعافيةِ مِن الأهواء.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

عقد المُصَنِّف - وفَّقه الله - فصلاً آخر يدعو فيه إلىٰ مسعًىٰ آخر مِن مساعي الخير، فقال: (واعلمْ أنَّ دينَ الإسلام كاملٌ، وأنَّ الله رضيه لنا).

فدين الإسلام دينٌ كاملٌ؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، وإذا كان كامِلًا فليس بحاجةٍ إلىٰ تكميلِ أحدٍ.

وهو الَّذي رضيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا دينًا؛ فقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وما عدا هذا الدِّين الكامل المَرضيِّ فإنَّه يكون باطلًا؛ قال الله تعالىٰ:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]، فكلُّ دِينٍ سوىٰ دين الإسلام هو دينٌ باطلٌ، وأصحابُه خاسرون فِي الآخرة، فدينُ اليهوديَّة، والنَّصرانيَّة، والمَجوسيَّة، والبُوذيَّة، والسِّيخِيَّة، وغيرها مِن الأديان اليوم؛ كلُّها أديانٌ باطلةٌ.

فإن قيل: هذا احتكارٌ الحقِّ!

قُلْنَا: هذا احتكارٌ للحقِّ بالحقِّ؛ لأنَّ الَّذي خصَّ الإسلامَ بكونِه الحقَّ: هو الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بقولِه الحَقِّ؛ فما عدا ذلك فهو باطلٌ.

وهذه المعانِي الجَلِيَّة فِي الدِّين يُقرِّرها اللهُ بأيْسَرِ طريقٍ لِمَن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السَّمعَ وهو شهيدٌ، فمِن النَّاس اليومَ مَن يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون]، ويزعم أنَّ هذه الآيةَ تسليمٌ لكلِّ ذي دِينٍ بدينه، وحقيقتُها: البَراءة من دين الكافرين.

والَّذي يدَّعي أنَّ هذه الآية تُمثِّلُ سَعَةَ الإسلام فِي قبول الأديان الأخرىٰ، نسيَ أنَّ السُّورة اسمُها (سورة الكافرون)، فكلُّ ما عدا المؤمنين بِهذا الدِّين الَّذي جاء به محمَّدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهم كافرونَ، بخبَرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا دِينَ إلَّا الدِّين الَّذي أنزله الله علىٰ محمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجعله كاملًا ورضيه لنا دينًا.

ثمَّ قال: (فالدِّين الحقُّ) أي اللَّازمُ الثَّابت الَّذي يجب علينا اتِّباعُه (هو ما جاء به الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فأمَرنا باتِّباع ما جاء به النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ثمَّ قال: (والأهواءُ والبدعُ ليس مِن دينِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لأنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ»(١)، فالمُحدَثَات والبدع ليست من الدِّين الَّذي جاء به النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي مردودةٌ علىٰ أصحابِها، ولذلك قال الله فِي الآية المتقدِّمة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]؛ أي لا تأخذوا فِي الطُّرق الَّتي لم يأتِ بها مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقعُوا فيمَا لا تُحمَد عاقِبتُه مِن البدعة والضَّلالة أو الكفر والخروج من الإسلام.

ثمَّ قال: (ومن أعظم النِّعم: نِعمة الإسلام والسُّنَّةِ والعافيةِ من الأهواء)؛ لأنَّ **النِّعم الَّتي يُغمَر بِها العبد نوعان:**

- **أحدهما: نِعمٌ ظاهرةٌ**، كصحَّة بدنٍ، وكثرةِ ولَدٍ، ووَفْرةِ مالٍ.
- **والآخر: نِعمٌ باطنةٌ**؛ كالإسلام، والسُّنَّة، والعافية مِن الأهواء.

والنِّعم الباطنةُ أعظمُ مِن النِّعم الظَّاهرة؛ لأنَّ النِّعم الظَّاهرة يُشَارِكُ المؤمنَ فيها الكافرُ، وتستوي البهيمةُ العَجْماءُ فِي أشياءَ مع ابنِ آدمَ العاقلِ، فقد ترىٰ بَهيمةً أقوىٰ بدنًا من بشرٍ، أو أكثرَ ولدًا من بشرٍ، أو أفْرَه حالًا من بَشرٍ.

وأمَّا النِّعم الباطنة فيَخُصُّ بِها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادَه المُؤمنين، فتكون هذه النِّعمُ أعظم.

ولا يُنعِمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ العبدِ بنعمةٍ أعظمَ مِن الإسلام وما دارَ فِي فَلَكِه؛ من كونه علىٰ هدي النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَّةً، مع المُعَافاة مِن الأهواء الَّتي تجتَذِبُ الخلقَ

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧) ومسلمٌ (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

إلىٰ خلافِ أمرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال سفيانُ بن عُيَينةَ: «مَا أنْعَمَ الله علىٰ عبادِهِ نعمةً أعظمَ مِن أنْ عرَّفَهم لا إله إلَّا الله». رواه ابن أبي الدُّنيا فِي كتاب «الشُّكر» [١].

فأعظَمُ النِّعمِ الَّتي أنعمَ الله عَزَّوَجَلَّ بِها علينا أنْ جعلَنا مسلمينَ، فمَا جعلنا يهودًا ولا نصارَىٰ ولا مُشركين وَثَنِيِّين، ولا غيرَ ذلك مِن أديان المُبْطِلين.

وهٰذه النِّعمة تخفىٰ علىٰ كثيرٍ من النَّاس، فإنَّه يَغِيب عن نُفوسِهم أنَّ مَن عبدَ غيرَ الله لم يزلْ ضَيِّقَ الصَّدر، مُبَلْبَل الخاطِر، فِي ضَنَكٍ وكَرْبٍ، وأمَّا المؤمنُ فإنَّه إن ضاقتْ به الحياة الظَّاهرةُ - مِن فَقرٍ وعِوَزٍ وحاجةٍ - فقدِ اتَّسعتْ به الحياةُ الباطنة.

ومِن هنا كان إبراهيمُ بنُ أدهمَ لَمَّا تَزهَّد وتركَ بِلادَه وتحوَّلَ إلىٰ بغدادَ، كان علىٰ شاطئِ نَهر دجلةَ وبيده كِسَرٌ من الخُبز اليابِس وهو يغمِسُها فِي الماء ويأكلُها، ثمَّ يقول - وهو الأميرُ بنُ الأميرِ - لصاحبِه أبي يُوسفَ الغَسُوليِّ: «لَو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه مِن النَّعيم لَجَالَدُونا عليه بالسُّيوفِ أيَّام الحياةِ علىٰ ما نحن فِيه من لذيذ العيشِ»، فقال له أبو يُوسفَ: طلبَ القومُ الرَّاحةَ والنَّعيمَ فأخطؤُوا الطَّريقَ المستقيمَ، فَتَبَسَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ لك هذا الكلام؟!» [٢].

يعني: أرادوا أن ينالوا هٰذه السَّعادة الَّتي نحن فيها، لكن ضَلُّوا الطَّريقَ، يظنُّون أنَّ السَّعادة بالأموال، والمراكِبِ الفارهةِ، والقُصور المشيَّدةِ، وحَقيقةُ الأمرِ: أُنْسُ القلبِ بالله.

---

(١) رقم (٩٦).

(٢) «البداية والنِّهاية» لابن كثيرٍ (١٠/ ١٣٨).

قال ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ فِي الدُّنيا جنَّةً مَن لم يدخلْها لم يدخلْ جنَّة الآخرةِ»؛ ذكرهُ عنه تلميذه ابنُ القيِّم فِي «مدارج السَّالكين»[(١)].

وما جنَّة الدُّنيا إلَّا أُنْسُ العبد بالله؛ بأن يكون علىٰ الإسلام والسُّنَّة، معافًىٰ من الأهواء؛ فلا مَيْلَ فِي قلبه لأحدٍ مِن الخلق سِوىٰ اتِّباع محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن أمَرَ محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتِّباعه مِن أهل القرون الثَّلاثة، فحاله كما قالَ ابن القَيِّم:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ   أَعْنِي طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ[(٢)]

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقَ قُلوبَنا تقواه، والسَّيْر فِي هُداه.



(١) (١/ ٤٥٢).

(٢) «الكافية الشَّافية في الانتصار للفِرقة النَّاجية»، البيت (٣٤٨٢).

قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلم أنَّه يجب علىٰ العبدِ تجريدُ المتابعة للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الاعتقادات والأقوال والأعمال، والاقتداءُ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحَذَرُ من مخالفةِ أمرِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أن يُصيبَ العبدَ فتنةٌ أو عَذابٌ أليمٌ.

فمن أطاعَ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخلَ الجنَّةَ، ومن عصاه دخلَ النَّار.

والبِدَعُ المُحدَثةُ مردودةٌ علىٰ أهلها، فتجبُ مجانبَتُها والنُّفرةُ منها؛ وإن صَغُرَت، وسلامةُ دين العبد فِي تحقيقِ الاتبّاع، وهجرِ الابتداع.

ومِن شعار أهل السُّنَّة: اتِّباعُ آثار الصَّحابةِ؛ لأنَّهم صحبوا الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم أعلمُ بما جاء به مِن الدِّين.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

عقد المُصَنِّف - وفَّقه الله - فصلًا آخرَ يدعو فيه إلىٰ مسعًىٰ آخر مِن خير المساعي، فقال: (واعلم أنَّه يجبُ علىٰ العبدِ تجريد المتابعةِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الاعتقادات والأقوالِ والأعمالِ)؛ أيْ بأن لا يُزَاحم أمرَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمْرِ غيرِه، **فحقيقةُ**

(التَّجريد): كمالُ الاتِّباع؛ قال تعالىٰ: ﴿ **قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران:٣١]، قال ابن القيِّم: (لما كَثُر المُـدَّعون للمحبَّة طُولِبوا بإِقَامَةِ البيِّنةِ عَلَىٰ صحَّة الدَّعوىٰ، فلو يُعطَىٰ النَّاس بدعواهم لَادَّعىٰ الخَليُّ حُرْقةَ الشَّجيِّ، فتَنوَّعَ المُدَّعونَ فِي الشُّهُودِ، فَقِيلَ: لَا تُقبَل هذه الدَّعوىٰ إلَّا ببيِّنةٍ: ﴿ **قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران:٣١])[1]، فالفُرقان بين الصَّادق فِي محبَّته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والكاذب المُدِّعي لها: صدقُ الاتِّباع، بتجريدِ ذلك للنَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الاعتقاداتِ والأقوال والأعمال.

وقد أُمِرْنا بأن نقتدِي بالنَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي بأن نتَّخذه قدوةً نَسيرُ بسيره؛ قال تعالىٰ: ﴿ **لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ** ﴾ [الأحزاب:٢١]، فهو صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسوةٌ حسنةٌ فِي كلِّ بابٍ؛ صَغُر أم كَبُر، عَمَّ أو خصَّ، فلا خيرَ للنَّاس فِي أيِّ بابٍ مِن أبوابِ أُمُورِهم السِّياسيَّة أو الاقتصاديَّة أو الثَّقافيَّة أو الأخلاقيَّة أو غيرِها إلَّا بالاقتداء بمُحمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمَّ ذكر المُصنِّف أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حذَّرنا (من مخالفةِ أمرِه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أن يُصيبَ) أحدنا (فتنةٌ أو عذابٌ أليمٌ)؛ فقال تعالىٰ: ﴿ **فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣** ﴾ [النُّور]، وهذا الوعيدُ المُتَهدَّدُ به الخطابُ فيه يعمُّ أفرادَ النَّاس وجماعاتِهم، فإذا خالفَ المسلمونَ - آحادًا أو جماعاتٍ، أفرادًا أو دُوَلًا - أمرَ الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فإنَّهم يستقبلون أحد شيئين:**

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٣/ ١٠).

- **أحدهما**: الفتنة.
- **والآخر**: العذاب الأليم.

وقد فسَّر الإمامُ أحمدُ الفتنةَ فِي هذه الآية بالشِّرك؛ لأنَّهُ أعظمُ الفتنةِ، فقال: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنةُ الشِّركُ، لعلَّه إذا رَدَّ بعض قولِه أن يزيغَ فيهلِكَ». رواه ابنُ بطَّةَ فِي «الإبانة الكبرىٰ»(١).

والآخر: العذاب الأليم، بأن يُسلِّط الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تارةً عليهم بَأْسَهم، فيكونُ بينَهم، فيقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويأخذ بعضُهم أموالَ بعضٍ، ويَهْتِكَ بعضُهم حُرمةَ بعضٍ، وتارةً يُسلِّط الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ بعضِهم عَدوًّا من غيرِهم.

ومِن النَّاس مَن يَتفطَّن إلىٰ معرفةِ أسباب ضعف المسلمينَ المُتعلِّقة بأحوالِ دُنياهم، ويغفَلُ عن أسباب ضعف المسلمين المُتعلِّقة بأمرِ دِينِهم، فإنَّ أكثرَ ما أُتِيَ منه المسلمونَ فِي هذه الأزمنةِ المتأخِّرةِ هو ضعفُهم فِي دينِهم، فلمَّا ضَعُفُوا فِي دينِهم صار الأمرُ إلىٰ ما تُوعِّدوا به فِي هذه الآية؛ أن تُصِيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليمٌ.

ثمَّ قال: (فمن أطاع الرَّسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الجنَّةَ، ومن عصاه دخل النَّار)؛ لقوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حديث أبي هريرةَ الَّذي رواه البخاريُّ فِي (**كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة**)، قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ يَأْبَىٰ؟، قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»(٢).

ثمَّ ذكر المُصَنِّفُ أنَّ (البدعَ المحدَثةَ مردودةٌ علىٰ أهلها، فتجبُ مجانَبَتُها)؛ أي

---

(١) رقم (٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٠) من حديث أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مُباعدتُها، (والنُّفرَةُ منها، وإن صغُرت)؛ لقَباحَتِها فِي نفسِها، فإنَّ البدعةَ وإن كانت صغيرةً فهي جِدُّ قبيحةٌ؛ لأنَّ المُبتدِعَ ينسِب الصَّادقَ الأمينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ ترك شيءٍ من الرِّسالة، قال الإمام مالكٌ: «مَن زعم أنَّ فِي الاسلام بدعةٌ حسنةٌ فقد زعم أنَّ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خانَ الرِّسالةَ»[1]؛ أي بأنَّه ترك شيئًا من الدِّين استدركه هذا بعد النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا كان هذا أحدُنا يأنَفُ مِن أن يستدرِكَ عليه أحدٌ حرفًا ويكونُ فِي نفسِه شيءٌ عليه؛ فكيف إذا كان هذا يستدركُ علىٰ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فيكونُ حينئذٍ ما وقع فيه حقيقٌ بالنُّفرَة.

وإنَّكَ لَتعجَبُ مِن أقوامٍ يدَّعون محبَّة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتخوَّضُون فِي البدعِ صباحَ مساءَ، إذْ لو كانوا صَادقين فِي مَحبَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا رَضُوا أن يُنسَبَ الصَّادقُ الأمينُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ تركِ شيءٍ مِن الدِّينِ حتَّىٰ يُبتَدَع فيُستكمَل الدِّينُ بابتداعِ هذا المُبتدِع، ولكن إذا عَمِيَ القلبُ ضلَّ العبدُ، نسألُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يهدي قلوبَنا.

ثمَّ قال: (وسلامةُ دينِ العبدِ فِي تحقيق الاتِّباع، وهجرِ الابتداع)؛ لأنَّ الاتِّباعَ سَيْرٌ وراء النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه سلامةُ العبدِ لدينِه، وهجرُ الابتداع تركٌ لِكلِّ ما أُحْدِث بعد النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممَّا جاء به بعضُ النَّاس بعدَه، فسلامةُ العبدِ فِي اكتفائِه بِهدي النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهَجرِه كلَّ بدعةٍ مُحدثةٍ، فإنَّ الله يسألُه عمَّا جاء به الرَّسول

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام (٦/ ٥٨) لابن حزمٍ، ونقله الشَّاطبيُّ فِي عدَّة مواضعَ من «الاعتصام»: (١/ ٦٥)، (١/ ٤٩٤)، (٢/ ٥٤٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يسألُه عمَّا جاءَ به فلانٌ أو فُلانٌ، فإنَّ الله بعثَ إلينا محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَرَنا بطاعَتِه، وسيكون السُّؤال فِي القبْر عنه لا عن غيرِه.

ثمَّ قال: (ومِن شعار أهل السُّنَّة: اتِّباعُ آثارِ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)؛ أي ما جاء عنهم من اعتقادٍ أو قولٍ أو عملٍ؛ (لأنَّهم صَحِبوا الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَشَهدوا التَّنزيلَ، فَخُصُّوا بِما لم يَنَلْه غيرُهم، فإذا كانوا بِهذه المنزلةِ فإنَّ مِن شعارِ أهل السُّنَّة الَّذي فارقوا به غيرَهم: أنَّهم اقتدوا بأصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظَّمُوا آثارَهم؛ لعِلْمِهم بأنَّ هؤلاء كَانُوا بِهدي النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرف، وكانوا علىٰ سُنَّته أَوْقف.

قال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: «مَا لَمْ يَعْرِفْهُ البَدْرِيُّونَ فَلَيْسَ مِنَ الدِّينِ»[1]، وذِكرُه (البدريِّين) لأنَّهم قُدماءُ أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذَا كان شيءٌ منَ الدِّين لم يكن عليه أصحابُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه لا خيرَ فيه.

والدِّينُ فيما جاء بِهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونَقَلَه عنهُ أصحابُه، فتارةً ينقلُونَه بنسبَتِه إليه، وتارةً يَنقلُونَه بعمَلِهم وقولِهم، فمتىٰ عرَفْنا شيئًا مِن الدِّين بقولِهم وعمَلِهم عَرفْنا أنَّ هذا هو الدِّينُ الَّذي أخذُوه عن محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



(١) رواه ابنُ عبد البَرِّ فِي «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٢٥) (١٨٠٥).

قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



واعلم أنَّ العبد مأمورٌ بالاستمساك بالوحي؛ لأنَّ القرآنَ تِبيانٌ لكلِّ شيءٍ، وهو هدًىٰ ورحمةٌ وبُشرىٰ للمسلمين، ورَسولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تَركَنا علىٰ مِثلِ البيضاءِ، ليلُها ونَهارُها سواءٌ، ودلَّ أمَّته علىٰ خيرِ ما عَلِمَه لهم، وأنْذَرَهم شرَّ ما عَلِمَه لهم.

وبيَّن ما يحتاج إليه النَّاسُ فِي دينهم بيانًا تامًّا؛ ليستغنوا ببيانِه عَمَّا عَدَاه، فلا نتكلَّف بعده مَا لا يَعْنِينا؛ فإنَّما أهلكَ الَّذين مِن قبلنا كثرةُ مسائلِهم واختلافُهم علىٰ أنبيائِهم.

ولا نعملُ فِي أمر الدِّين بالرَّأي الَّذي لا يَستَنِد إلىٰ أصلٍ من الشَّرع.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

عقد المُصَنِّف - وفَّقه الله - فصلًا آخَر يدعوه فيه إلىٰ مسعًىٰ آخر مِن خير المساعي، فذكر (أنَّ العبدَ مأمورٌ بالاستمساك بالوحي)؛ أي شدَّةِ التَّعلُّق به ولزومِه؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ [الزُّخرف:٤٣]، والَّذي أُوحِي إليه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ما جاء به مِن الدِّين فِي القرآنِ والسُّنَّة، فالعبدُ مأمورٌ بأن يَشُدَّ يدَه به، وأنْ يَتَعلَّقه.

ثمَّ بيَّن وجهَ ذلك بقولِه: (لأنَّ القرآن تِبيانٌ لكلِّ شيءٍ، وهو هدًىٰ ورحمةٌ وبُشرىٰ

للمسلمين)، فأُمِرْنا بذلك لأنَّ الله أنزلَ علينا القرآنَ، **والقرآنُ يجمع أمرين:**

- **أحدهما:** أنَّه اشتملَ علىٰ إيضاحِ ما نحتاج إليه، فهو كَمَا أخْبَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تِبيانٌ لكلِّ شيءٍ.
- **والآخر:** أنَّ اتِّباعَه يُثْمِرُ الهُدَىٰ والرَّحمةَ، وينالُ به العبدُ بُشرَىٰ الدُّنيا والآخرة.

ثمَّ أتمَّ تعليلَه بأنَّ الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قد تَركنا علىٰ مِثل البيضاءِ، ليلُها ونَهارُها سواءٌ، ودلَّ أمَّتَه علىٰ خيرِ ما عَلِمَه لهم، وأنْذَرَهم شرَّ ما عَلِمَه لهم)، فالنَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تركنا علىٰ بيضاءَ؛ أي علىٰ جَادَّةٍ واضحةٍ نَقيَّةٍ صافيةٍ لا شائبةَ فيها، يَستوي فيها اللَّيل والنَّهارُ لِشِدَّة وُضوحِها، ومِن شِدَّة حِرْصِه علىٰ أمَّتِه - كما أخبَرَ الله عنه أنَّه حريصٌ علينا، فقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التَّوبة:١٢٨] -: أنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشدَنا إلىٰ خيرِ ما عَلِمه لنَا، وحَذَّرَنا شَرَّ ما عَلِمَه لنا، فأرشدَنا إلىٰ خَيرِ الخير، وحَذَّرنا مِن شَرِّ الشَّرِّ.

ثمَّ ذكر أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بيَّنَ ما يَحتاجُ إليهِ النَّاسُ فِي دينِهم بيانًا تامًّا؛ ليستغنُوا ببيانه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن كلِّ أحدٍ؛ قال أبو ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تَرَكَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا عِنْدَنَا مِنْهُ عِلْمٌ». رواه ابنُ حِبَّانَ [1] وإسنادُه صحيحٌ؛ أي فكلُّ شيءٍ يُحتاج إليه قد أرشدَنا النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه.

ثمَّ قال: (فلا نتكلَّفُ بعدَه مَا لا يَعنِينَا؛ فإنَّما أهلك الَّذين مِن قبلنا كثرةُ مسائلِهم واختلافُهم علىٰ أنبيائِهم)، فإنَّ التَّقعُّرَ فِي البحثِ بدخولِ العبدِ فيما لا يَعْنِيه، والتَّشدُّدَ

(١) رقم (٦٥).

فيه؛ مِمَّا نُهي عنه.

وعند البخاريِّ مِن حديث أنسٍ أنَّه قال: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»(١)، ومثلُ هذا حكمُه الرَّفعُ؛ أي ممَّا نَهىٰ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه أنْ يتكلَّفَ الإنسانُ؛ لأنَّ دِينَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُسْرٌ، وهو حَنِيفٌ سَمْحٌ، فإذا كان كذلكَ فلا حاجةَ إلىٰ أن يتكلَّف الإنسانُ بالبحثِ فيه، وأن يَدْخلَ فيما لا يَعنِيه، فإنَّ مَن سارَ فِي هذه الجادَّة من الأُمم الَّتي تقدَّمتنا هلَكَتْ بذلك؛ لحديث أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ**»(٢).

ثمَّ قالَ المُصَنِّفُ - وفَّقه الله -: (ولا نعملُ فِي أمرِ الدِّين بالرَّأي الَّذي لا يستَنِدُ إلىٰ أصلٍ من الشَّرع)؛ أي الرَّأيِ الَّذي لا يرجعُ إلىٰ أصولِ الشَّرع ومَقاصِدِه، وهو الَّذي يُسَمَّىٰ (الرَّأيَ المذمومَ).

فإنَّ الرَّأي نوعان:

- **أحدهما: رأيٌ محمودٌ**؛ وهو ما تدلُّ عليه أصول الشَّرع ومقاصده.
- **والآخر: رأيٌ مذمومٌ**؛ وهو ما لا تدلُّ عليه أصول الشَّرع ومقاصدُه.

والمراد بـ(الرَّأي): ما استُفيد بنظرٍ واستنباطٍ؛ فسُمِّي (رَأيًا) لأنَّه ممَّا يراه العبدُ، والرُّؤية هنا: عِلميَّةٌ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٨) ومسلمٌ (١٣٣٧).

فإذا كان الَّذي رآه تدلُّ عليه أصولُ الشَّرع ومقاصدُه فهذا محمودٌ، وهو الَّذي جاء عن جماعةٍ مِن السَّلف، وإن كان لا يرجع إلىٰ أصولِ الشَّرع ومقاصدِه فهذا مذمومٌ، وهو الَّذي نُهِي عنه فِي الشَّرع.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



واعلم أنَّ فضلَ العلمِ وأهلِه عظيمٌ، وأنَّه يُؤْخَذ عن أهله بالتَّلقِّي والسَّمَاع والسُّؤَالِ مع طُولِ الصُّحبة، ومَن ليسوا مِن أهله فلا يُؤْخَذ عَنهم.

وشرُّ هؤلاءِ: الرُّؤوس الجهَّال، والَّذين يتَّبعون المُتَشابِه.

ويُقبَضُ العلمُ بقبضِ العلماءِ، فلْتَحرِص علىٰ المبادرةِ إلىٰ تلقِّيه عنهم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

عقد المُصَنِّف - وفَّقه الله - فصلًا آخرَ يدعو فيه إلىٰ مسعًىٰ آخر من خير المساعي، مُبيِّنًا (أنَّ فضلَ العلمِ وأهلِه عظيمٌ)، داعيًا إلىٰ أخذِه والاعتناء بحملِه، **فإنَّ ما ثَبَتَتْ له الفضائلُ حُمِلَت عليه النُّفوسُ**، والعلمُ مِن أكثر ما جاء فِي القرآن والسُّنَّة ذِكْرُ فضلِه، فاطِّلاعُ العبدِ علىٰ فضله يَحمِل نفسَه علىٰ أخذِه والاعتناءِ به.

ولابن القيِّم كتابٌ واسع ماتعٌ هو أوسعُ كتابٍ جُمِعَت فيه فضائلُ العلم، وهو كتابُ «مفتاح دار السَّعادة»، فكلُّ المجلَّدِ الأوَّل وبعضُ الثَّانِي هو فِي أدلَّة فضلِ العلم، وقد ذكر مِئِينَ من الأدلَّة الَّتي تُبَيِّنُ فضل العلم وفضلَ أهلِه.

ثمَّ قال: (وأنَّه) - يعني العلمَ - (يُؤْخَذ عن أهله بالتَّلقِّي والسَّمَاع والسُّؤَالِ مع طُولِ الصُّحبة)، فمن رام العلمَ سلكَ تلك المسالكَ المَنْعُوتَة.

فهو يُؤخَذ تلقِّيًا وسماعًا؛ ففي حديثِ عبد الله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مَرفوعًا: «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ». رواه أبو داودَ[1] وإسناده صحيحٌ، وهذا سماعٌ وتَلَقٍّ.

ويُؤخَذ كذلك بالسُّؤال؛ قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النَّحل].

ولا يمكِن هذا وذاكَ إلَّا مع طُولِ الملازمة، وقد ذكرتُ لكم قولَ مالكٍ - الَّذي ينبغي أن يكون نِيَاطًا فِي قُلوبِكم -: «كان الرَّجل يختلِفُ إلىٰ الرَّجل ثلاثينَ سنةً يتعلَّم منه». رواه أبو نُعيمٍ الأصبهانِيُّ فِي كتابِ «الحلية»[2].

وفِي أخبار أبي القاسمِ الطَّبَرانِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه قِيل له: بِمَ حصَّلتَ هذا العلم؟ قال: «بالجلوس علىٰ البَوارِي ثلاثين سنةً»[3]، والبواري هي الحُصُر الَّتي كانت تُوجَد فِي المساجد، فكان يجلس عليها فِي ملازمة الشُّيوخ مُدَّة ثلاثين سنةً حتَّىٰ صار عنده علمٌ انتفع النَّاس به.

ثمَّ قال: (ومَن ليسوا مِن أهله فلا يُؤْخَذ عَنهم)؛ أي مَن لم يكنْ مِن أهل العلم فلَا

(١) رقم (٣٦٥٩).

(٢) (٦/ ٣٢٠).

(٣) ذكره الذَّهبيُّ فِي «السِّير» (١٦/ ١٢٢)، بلفظِ: «كنتُ أنامُ...».

يُؤخَذ عنه العلمُ، فلا يُدْرَك العلمُ إلَّا بأخذِه عنْ أهلِه.

وقد رُوي عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - بإسنادٍ فيه ضعفٌ -: «إنَّ هذا العلم دينٌ؛ فانظرُوا عمَّن تأخذونَ دينكُم» (١)، ورُوِي عن جماعةٍ من السَّلف، وهو مِن أُصولِهم فِي العلم والدِّين؛ أنَّ العلم والدِّين لا يُؤْخذ إلَّا عن أهلِه، وأهلُه لهم علاماتٌ يُعرَفون بِها، أعظمُها ما جاء فِي قولِ عبد الله بنِ عونٍ: «لا تأخذوا العلمَ إلَّا عمَّن شُهِدَ لَهُ بِالطَّلَبِ»(٢)؛ لأنَّ المرء يخرج مِن بطن أمِّه جاهلًا لا عِلمَ له؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [النَّحل: ٧٨]، فلا سبيلَ إلىٰ حيازتِه العلمَ إلَّا بأن يطلبَه مِن أهلِه، فإذا طلبَه مِن أهلِه فقد رَقَىٰ سُلَّم أخذِ العلمِ والمعرفةِ به فِي أوَّل درجاتِه، فإذا وُجِد هذا فِي نَعتِه فهو مِن أهله الَّذين يُؤخَذ عنهم، ومَن لم يكن مِن أهله فإنَّه لا يُؤْخَذ عنه.

والعلم والدِّينُ لا يَخفىٰ علىٰ أحدٍ؛ قال معاذُ بنُ جبلٍ: «إنَّ علىٰ الحقِّ نورًا». رواه أبو داود السِّجستانِيُّ في كتاب «السُّنن»(٣)، وإسناده صحيحٌ، فلا يحتاجُ إلىٰ المناصِبِ والشَّارَات، ولا إلىٰ الأضواءِ والفلاشات، ولا إلىٰ الإعلام والتَّذكرات؛ لأنَّ الله تكفَّل بأنَّ مَن قامَ فِي نُصرة دينِه بعد نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنَّه ينصرُه ببَثِّ ما عنده من الحقِّ.

ومن تأمَّل أحوال النَّاس وما كُتِب لهم من الخير فِي المعرفة بالعلم وبثِّه، عرفَ أنَّ الصَّادق منهم لَمْ يَنلْه بِهذه الأسباب الَّتي بُلِي بِها النَّاس، فإنَّ أكثرَ النَّاس حُجِبُوا

---

(١) أخرجه ابن عَديٍّ في «الكامل» (١/ ٢٥٣)، والخطيب في «الكفاية» (٣١٧).

(٢) «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (١/ ٤٥).

(٣) رقم (٤٦١١).

بالأسباب المادِّيَّة عن الإعانةِ الإلهيَّة، فترىٰ أحدَهم يَحرِص كثيرًا علىٰ أن يُصحَبَ إعلانُ درسِه بصُورتِه، ويحرِصُ علىٰ أن يُنقَل فِي تلك القناة أو تِلك، ومَن صدقَ الله نقلَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عِلمَه إلىٰ النَّاس.

وإذا اعتبَرْتَ هذا فِي أزمنةٍ قريبةٍ رأيتَ عجبًا، فقد كان في دِلهي رجلٌ اسمُه نذير حسين - تُوفِّي سنة عشرين وثلاثمائة وألفٍ -، رحل إليه النَّاس مِن كلِّ فجٍّ عميقٍ، من الحجازِ، ونجدٍ، بل من تلاميذه من بلاد المغرب، ومِن تلاميذِه مِن بلاد الصِّين، حتَّىٰ قال تلميذُه عبدُ الحيِّ الحسنيُّ: (وتلاميذُه العلماءُ منهم فوق الألف)، وقد ذكرَ بعضُ تلاميذِه أنَّه عُدَّ مرَّةً مَن أخذَ عنه العلمَ فِي مُدَّةٍ فبلغوا أكثرَ مِن اثنيْ عشر ألفًا، ولم يكن عنده قناةٌ، ولا إعلامٌ، ولا صُحُفٌ، ولا جرائدُ، بل اعتقله الإنجليزُ مدَّة سنَةٍ فِي السِّجن، لمَّا كانوا فِي إبَّان احتلالهم للهند، ومع ذلك نفع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بِهذا الرَّجل نفعًا عظيمًا.

وأنتُمْ تسمعونَ عن دعوة الشَّيخ عبد الله القَرعاويِّ الَّتي فِي جنوبِ هذه البلادِ، وكان هذا الرَّجل قد درَس فِي إحدىٰ المدارس الهِنديَّة الَّتي يقوم عليها تلميذٌ لذلك الرَّجل، فكلُّ هذه الدَّعوة كانت مِن أجل ذلك الرَّجل الَّذي علَّم شيخَ الشَّيخ عبد الله القرعاويِّ - رحمةُ الله علىٰ الجميع -، ومَن صدقَ الله جعلَ الله عَزَّوَجَلَّ له نشْرًا لعلمِه.

ومَن تأمَّل سيرةَ هذا الرَّجل عرفَ أنَّه رجلٌ صادقٌ، وأنا أذكرُ لكم خبَرًا عنه؛ لأنَّ الأمرَ كما قال البَرقيُّ: «الحكاياتُ حُبوب، تُصَاد بِها القلوب» [1]؛ يَعني فِي تعريفها بما عليها.

(١) رواه السَّمعانيُّ في «أدب الإملاء والاستملاء» (ص٧٠).

فمن أخباره: أنَّه قصده أحدُ الطُّلاب - ممَّن صار بعد ذلك من أكابر تلاميذِه - ويُقال له: عبد الله الغَزْنوِيُّ، فقصَده من غَزْنةَ فِي بلاد أفغانستانَ، فلمَّا نزل محطَّة القطار - وكان رجلًا أعمىٰ - جاءه رجلٌ فقال له: هل تريد أحدًا يحمل لك متاعك؟ فقال: نعم، ولكنَّني أريد أن تذهب إلىٰ مسجد (مِيَانْ صَاحِبْ) - وهذا لقبُ الشَّيخ نذير بلغتهم -، فقال: حسنًا أنا أذهبُ بكَ إليه، فأخذَه إلىٰ أن أدخله المسجدَ وأوقفَه فيه، فقال: هذا مسجدُ فلانٍ الَّذي تسأل عنه، فقال: كم أُجْرتُك؟ قال: لا أريد منك أُجرةً، أنت طالبُ عِلمٍ وأنَا رجلٌ مسلمٌ وأريدُ الأجرَ، فانصرفَ فصلَّىٰ هذا الرَّجلُ ركعتين، فلمَّا انفتلَ مِن صلاتِه سمع طلبةً فِي طرف المسجدِ، فذهبَ إليهم وسلَّم عليهم، ثمَّ قال لهم: متىٰ يأتِي الشَّيخ نذير حسين؟ فقالوا: إنَّ الرَّجل الَّذي أدخلك المسجد هو نذير حسين، وكان مِن عادته أنَّه يذهبَ أحيانًا إلىٰ محطَّة القطار يتصفَّح وجوهَ النَّاس، فإذا رأىٰ رجلًا يُريدُه أخَذَه إلىٰ مسجدِه، فوقعَ ذلك الكلامُ عليه كالصَّاعقة وعظُم عليه الأمرُ، فلمَّا اجتمعَ به بعد ذلكَ وسلَّم عليه بكىٰ بكاءً واعتذرَ منه بأنَّه لم يعرفه، فقال له: إنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»[1]، وأنت جئتَ ضيفًا لي وأنا أكرمْتُك بذلك.

فانظر إلىٰ النِّيَّة الصَّادقة، وابتغاءِ الأجر، وعدم طلب الشُّهرة، فلم يذهب أحدٌ يصوِّره فِي محطَّة القطار لأجل استقباله طلَّاب العلم! لا، هو يعمل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكتب الله عَزَّوَجَلَّ له منَ الخيرِ الكثيرِ ما هذا بعضُه، لكن المقصود: أنَّ مَن كان مِن أهل العلم بِشَارَتِه وطَريقِه فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتكفَّل بإظهاره للنَّاس.

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٨) (٦١٣٦) (٦١٣٨) (٦٤٧٥) ومسلمٌ (٤٧) مِن حديث أبي هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثمَّ قال المُصَنِّف - بعد أمره بتلقِّي العلم عمَّن هُم أهلُه وأنَّه لا يُؤخذ عن غير أهلِه -:

(وشرُّ هؤلاءِ: الرُّؤوس الجهَّال، والَّذين يتَّبعون المُتَشابِه)، فهؤلاء شرُّ الخلق الَّذين ينبغي أن يحذرَ الإنسان منهم، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا ذكر حال النَّاس فِي آخر الزَّمان فِي حديث عبد الله بن عمرٍو فِي «الصَّحيحين»: قال: «**اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا**»(١)، فلا تحصلُ لهم هدايةٌ.

وكذلك الَّذين يَتَّبعون المتشابهَ؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حذَّرنا منهم، وأخبَر أنَّ هؤلاء يَؤول الأمر معهم إلىٰ زيغ القلوب، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، فإذا كان زائغَ القلبِ يتَّبعُ المتشابهَ فإنَّه لا يُنتِج إلَّا زائغًا مثلَه.

وهاتان الطَّائفتان قد فشا أمرُهما بِأَخَرَةٍ، وامتدَّت أعناقُهما، فكثيرٌ مِمَّن يُنسَب إلىٰ العلم هو مِن رُؤوس الجُهَّال أو مِن أتباع المُتَشَابِه، فلذلك يحذَر الإنسانُ علىٰ دينه.

وكان النَّاس عندنا فيما مضىٰ يَسْتَرشِدونُ بأكابرهم عند طلبِهم العلمَ، فيأتون إلىٰ العلماء المعروفينَ فيقرأُون عليهم، فآباؤُهم يَعْرِفونَ أنَّ هؤلاء علماءُ، وكما ذكرتُ لكم فإنَّ صاحب العلم لا يَخفىٰ حتَّىٰ علىٰ العجائزِ كبار السِّنِّ فِي البيوتِ، فالعجوز الَّتي تقول: (إنَّها أُمِّيَّةٌ لا تقرأ) تعرفُ العالمَ الَّذي يُؤخَذ عنه العلمُ، وأذكر فِي قصَّةٍ طويلةٍ آخِرُها: أنَّ رجلًا - وهو مِن أصحابنا فِي زمنٍ مضىٰ - قال لجدَّته متوسِّلًا بِها إلىٰ أبيه أنَّه يُريد أن يذهب إلىٰ المكانِ الفلانِيِّ لطلب العلمِ، فقالت: (ما عرفنا أنَّ مَن يريد العلمَ يذهب هناك، الَّذي يُريد الدِّين والعلمَ يذهب لابن بازٍ فِي الرِّياض، أو ابن عُثيمين في

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٠٠) ومسلمٌ (٢٦٧٣).

عنيزةَ)، فهذه عجوزٌ عرفَتِ الحقَّ، فالحقُّ يَجعلُ الله عَزَّوَجَلَّ له ظهورًا، وهذا الظُّهور ليس بالإعلام والأقلام، بل يُظهِره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولذلك؛ العنايةُ الإلهيَّة فِي حفظ الشَّريعة الإسلاميَّة تخفَىٰ علىٰ كثيرٍ من النَّاس، لكن مَن عرفَ دينَ الله، عرفَ أنَّ دين الله منصورٌ؛ قال ابن القَيِّم:

وَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا تَجْزَعْ فَهَذِهِ سُنَّةُ الرَّحْمَنِ[1]

فالله ناصرُ دينِه، ولذلك قال ابنُ المُبَارك: «لو هَمَّ رجلٌ في السَّحر أن يكذب في الحديث لأصبحَ والنَّاس يقولون: فلانٌ كذَّابٌ»[2]؛ لأنَّ هذه حمايةُ الله، وليس الأمرُ بأيدي النَّاس.

ولذلك فِي بعض أخبار مَن مضىٰ: أنَّه كان مَعروفًا بالرِّياء، حتَّىٰ صار يُنسَب به، فارْعوىٰ وأناب فِي آخِر عُمُره، فبينَما هو علىٰ تَوبتِه لم يزلِ النَّاس يَقولون: (فُلانٌ المُرائي)، فقام ليلةً بعد أن صلَّىٰ فِي بيته وبكَىٰ وتَضرَّع إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يدفعَ عنه ما يجده من النَّاس، فمرَّ علىٰ رجلين من العَسَس[3]، فلمَّا رأيا ظِلَّه أقبلَ قال أحدُهما: مَن هذا؟ فقال له الآخر: هذا فلانٌ - عرفَه بجِرْمه وجِسْمِه -، فقال الأوَّل: المُرائي؟ فقال الثَّانِي: قد كان ذاكَ ثمَّ تابَ فتاب الله عليه! فمنِ الَّذي أنطقَ هذا؟ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أظهر صحَّة توبةِ هذا علىٰ لسانِ هذا، فمَن كان مع الله كان الله معه، ومَن توكَّل علىٰ الله كفاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) «الكافية الشَّافية في الانتصار للفِرقة النَّاجية»، البيت (٢١٧).

(٢) «الموضوعات» لابن الجوزيِّ (١/ ٤٩).

(٣) **العَسس** هم الحُرَّاسُ فِي اللَّيل، الَّذين كانوا عندنا يُسمُّونَهم (العَسَّة).

ثـمَّ ذكـر آخِـرًا: (ويُقـبَض العلـم بقـبضِ العلمـاءِ)؛ أي بمـوتِهم؛ كمـا قـال النَّبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ**»[(١)].

فطالب العلم يُبادِر ولا يُسوِّفُ، فإنَّ (**سوفَ**) **شُعاعُ الشَّيطان**، وهي مِن جندِ إبليسَ[(٢)]؛ كما قاله جماعةٌ من السَّلف.

فعلىٰ طالب بالعلم أن يحذر مِن التَّسويف والتَّأخير، ويغتنمَ فضل وقتِه، وقوَّة بدنِه وصحَّتَه فِي أخذ العلم عنهمْ.



(١) أخرجه البخاريُّ (١٠٠) ومسلمٌ (٢٦٧٣) مِن حديث عبد الله بن عمرِو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرج الخَطيبُ فِي «اقتضاء العلم العمل» (٢٠٠) عنْ أبي الجَلْدِ، قَالَ: «قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الكُتُبِ: إنَّ (سَوْفَ) جندٌ مِن جُند إبليسَ».

قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



واعلم أنَّ الله أمرَ بلزومِ الجماعة، ونَهىٰ عن التَّفرُّقِ، وقد توعَّد الله مَنِ اتَّبعَ غير سبيلِ المؤمنينَ.

وخيرُ الدُّنيا والآخرةِ فِي لُزوم الجماعة، ومَن فارقَها فمات فمِيتَتُه جاهليَّةٌ.

وأُمِرْنَا بلزومِ الجماعةِ؛ لِحَمْدِ عاقبةِ لُزُومِها مع فَقْدِ العبدِ مَحْبُوبَه فيها، وسوءِ عاقبةِ الفُرقةِ مع حصولِه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

عقد المُصَنِّف - وفَّقه الله - فصْلًا آخرَ يدعو فيه إلىٰ مسعًىٰ آخر من خير المساعي، وهو (أنَّ الله أمرَ بلزومِ الجماعة، ونَهىٰ عن التَّفرُّقِ)، فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الرُّوم].

ثمَّ قال: (وقد توعَّد الله مَنِ اتَّبعَ غير سبيلِ المؤمنينَ)؛ أي أخذَ فِي طريقٍ غير

طريقِهم، فمَن أخذَ فِي طريقٍ غير طريقةِ جماعة المسلمين فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعَّدهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النِّساء].

ثمَّ قال: (وخيرُ الدُّنيا والآخرةِ فِي لزوم الجماعة)؛ أي ما يناله الخلقُ مِن خيرٍ عاجلٍ أو آجلٍ مَرهونٌ بلزوم العبدِ لجماعة المسلمين، ولأجلِ ذلك قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ**». رواه التِّرمذيُّ[1] وغيرُه مِن حديث عُمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه ابن حبَّان والحاكمُ.

وإذا عدلَ العبدُ عن سبيلِ المؤمنينَ وخرَج عَن جماعتِهمْ فقد تَوعَّدَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن يُولِّيه ما تولَّىٰ، وأن يُصْليه جهنَّمَ وساءت مصيرًا.

ومِن جملة ما تُوعِّد به: ما ذكر المُصَنِّف فِي قوله: (ومَن فارقَها فماتَ فمِيتَتُه جاهليَّةٌ)؛ أي تُوافِقُ حالَ مَوتَ أهلِ الجاهليَّة، فإنَّ أهل الجاهليَّة كانُوا يأنَفُونَ من الاجتماعِ؛ لِمَا جُبِل عليه العربيُّ من الحَميَّة والأَنَفَةِ والاستبدادِ بنفسِه ورأيِه، فجاءَ الشَّرع بخلاف ذلك.

ونِسبتُها إلىٰ الجاهليَّة دَليلٌ علىٰ قُبحِها وبَشَاعتها وحُرمتِها، **فكلُّ ما نُسِب إلىٰ الجاهليَّة مِن قولٍ أو فعلٍ أو اعتقادٍ فإنَّه مُحرَّمٌ.**

ثمَّ قال: (وأُمِرْنَا بِلُزومِ الجماعةِ؛ لِحَمْدِ عاقبةِ لُزُومِها مع فَقْدِ العبدِ مَحبوبَه فيها، وَسُوءِ عاقبةِ الفُرقةِ مع حصولِه)، فالعبدُ أُمِرَ بلزومِ الجماعةِ لأنَّ عاقبةَ بقائِه فيها خيرٌ له

---

(١) رقم (٢١٦٥).

مِن أن يُحصِّل مطلوبَه مع الفُرقةِ، فإنَّ مَن حصَّل مَطلُوبَه مع الفُرقةِ لمْ يَفرحْ به، فمَن نال مالًا أو مَنصِبًا أو رئاسةً حالَ فُرقةِ النَّاس فإنَّها تكونُ غُصَّةً فِي حَلْقِه، فإنَّ القلبَ إذا صار شَذَرَ مَذَرَ ممَّا يَتجدَّد بين النَّاس مِن النِّزاع والفُرقةِ والخلافِ، ولم يَطمئنَّ؛ فعندئذٍ لا يهنأُ بمَنامٍ ولا بمَطعمٍ ولا بمَشْربٍ، فحينئذٍ فقدُ الإنسان شيئًا مع لزومِ جماعة المسلمين؛ خيرٌ له مِن أن يذوقَ عَلْقمًا عند انفلاتِ أمرِ جماعة المسلمينَ.

والمرءُ لا يلحظُ فِي دينِه المصالحَ الخاصَّةَ، لكنَّه يلحَظُ المصالحَ العامَّةَ للمسلمين أجمعينَ، فهو إذا فاتَه فِي ذاتِه شيءٌ فقد أدْرَكَ مع جماعةِ المسلمين أشياءَ، والمؤمنُ العاقل لا تحمِلُه نفسُه علىٰ أن يطلبَ مالَه بإضاعة مالِ المسلمين، ولمَّا كان الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا مُؤمنًا عاقلًا، وأصابَه ما أصابَه من المأمون، ثمَّ المُعتَصِم، أراده النَّاس واجتمعَ إليه الفقهاء علىٰ الخروج بالسَّيف، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إلَّا الدِّماء، إلَّا الدِّماء!)؛ يعني أنَّ أمْرَ الدُّخول فِي شيءٍ يَجُرُّ علىٰ المسلمينَ سفكَ الدِّماءِ بينَهم شيءٌ عظيمٌ.

ولَئِنْ فَقَدَ الإنسانُ شيئًا مِن الدُّنيا يختَصُّ به، مع بقاءِ مال المُسلمين فِي جماعتِهم؛ لهُوَ خيرٌ له وللمسلمين فِي الدُّنيا والآخرة، ومَن فاته شيءٌ فِي الدُّنيا أدركَه عند الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذي لا يُظلَم عنده أحدٌ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



واعلمْ أنَّ مِن الواجب شرعًا طاعةُ أُولِي الأمر، فعلىٰ المسلم السَّمعُ والطَّاعةُ لِأُولي الأمْر مِنَّا فِي المَنْشَط والمَكْرَه، والعُسْرِ واليُسْر والأَثَرَةِ، وأن يقول بالحقِّ أينَما كان؛ لا يخاف فِي الله لومةَ لائمٍ.

فمَن تَأَمَّر منهم وجبَ له السَّمعُ والطَّاعة كائنًا مَن كانَ؛ وهي فَرضٌ فِي المعروف؛ فلا سمعَ ولا طاعةَ فِي معصيةِ الله، وإذا رأىٰ منهُ ما يكرَه كَرِه عملَه، ولم ينزِع يدًا مِن طاعةٍ.

وقد أُمِرْنا بالصَّبْر علىٰ ما يُكرَه منهم، وأن نُؤدِّي إليهم حَقَّهم، ونسألَ الله حَقَّنَا؛ فلا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه؛ إلَّا أن نَرىٰ كفْرًا بواحًا عندنا مِن الله فيه برهانٌ.

ونُهِينا عن سَبِّ الأمراء وعيْبِهم، ولعنِهم، ومَن أذلَّ سلطانَ الله فِي أرضِه أذلَّه الله.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

عقد المُصَنِّف - وفَّقه الله - فصلًا آخرَ يَدعُو فيه إِلَىٰ مسعًىٰ آخرَ مِن خير المساعي، مُبيِّنًا أنَّ (مِن الواجب شرعًا طاعةُ أولي الأمر)، امتثالًا لأمر الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النِّساء: ٥٩]، فطاعةُ أُولي الأمرِ هي من الأوامر الشَّرعيَّة، وليستْ من الإملاءات الواقعيَّة السِّياسيَّة، إذْ هي ليستْ مِن جَيْب فلانٍ أو فُلانٍ، وإنَّما هي الدِّين الَّذي رضيَه الله لنا، وإنَّك لَتعجَبُ لِعَبدٍ يَتقرَّر عنده كمالُ دينِ الإسلام، وأنَّ الله رضيَه لنا، ثمَّ يُخالِفُ فِي هذا الأصل العظيم، فإنَّ الله الَّذي كمَّل لنا الدِّين، ورضيَه لنا، أمرَنا بأن نُطيع أُولِي الأمرِ فينَا.

قال: (فعلىٰ المسلم السَّمعُ والطَّاعةُ لِأُولي الأمْر منَّا فِي المَنْشَط والمَكْرَه، والعُسْرِ واليُسْر والأَثَرَةِ، وأن يقولَ بالحقِّ أينَما كان؛ لا يخافُ فِي الله لومةَ لائمٍ)، فيسمع المسلمُ ويُطِيعُ لأُولِي الأمرِ منا، **والسَّمعُ** هو القبول، **والطَّاعةُ** هي الانقيادُ، فيقبَلُ منهم، وينقادُ لهم فِي مَنْشَطِه ومَكرَهِه، وعُسرِه ويُسرِه؛ وإن وُجِدَتْ أثرةٌ علينا، فإنْ مُنِع له شيءٌ من الدُّنيا وجُعِل لغيرِه فإنَّه يُبقي السَّمعَ والطَّاعةَ الَّتي أمرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها، ويقولَ الحقَّ أينما كان، لا يخافُ فِي الله لومةَ لائمٍ، فإنَّ حديثَ حذيفةَ الَّذي أُمِرْنا فيه بأن نسمعَ ونُطيعَ، أُمِرْنا فيه أيضًا بأن نقولَ بالحقِّ لا نخافُ فِي الله لومة لائمٍ.

ومعنىٰ **(أن نقول بالحقِّ)**: أن يصدعَ الإنسانُ بأمرِ الله ورسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، علىٰ الوجهِ الَّذي يُحِبُّه الله ورسولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فليس الصَّدعُ بالحقِّ هو رفع الصَّوت به علىٰ المنابر، ولا الدُّخول فِي المُهَاتَرات، ولا القيلُ والقالُ، ولكنَّ الصَّدع بالحقِّ أن يُؤدِّيه العبدُ كما أمرَه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به وأمره الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ وإنْ عدَّ النَّاس ذلك جُبْنًا، فأولئك الَّذين ينقمون علىٰ أهل الصَّلاح والهُدىٰ سَيْرَهم فِي الجادَّة الشَّرعيَّة فِي نُصح الرَّاعي والرَّعيَّةِ، العاقلُ لا يُبالي بِهم؛ لأنَّ مقصودَه فِي القيامِ بِهذا الأمرِ هو التَّقرُّب إلىٰ الله، وكما يكون مِن النَّاس عَبيدٌ للسَّلاطين؛ يكون من النَّاس عَبيدٌ

للنَّاس، فبعضُ النَّاس يظنُّ فقط أنَّ هذا يُذَمُّ لأنَّه مِن عُمَلاء السُّلطان، وأَنتَ مِن عُمَلاء الخلقِ! فهو يخاف أن تنكسِر سُمعتُه عند الخلق، ويخافُ ألَّا يحظىٰ بالتَّقدير والتَّعظيم عندهم، فيحمِلُه ذلك علىٰ أن يرتَكِب هذه الحَمَاقات والسَّفاهاتِ الَّتي يُخالِف فيها أمرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكنَّ العَارِفَ بالحقِّ يَتَّبِع أمرَ الشَّرع بأمرِهم بالحقِّ كما أراد الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو لا يُريدُ أن يقعَ فيما تَهواه نفسُه أو تُمْلِيه، وكما يحبُّه النَّاس؛ لا، هو يجعلُ نفسَه عبدًا لله، والطَّريق الَّتي أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بِها يَلْزمُها، وإذا كان يُمكِنُه أن يحملَ سَيفًا فهو يَكسِرُ سيفَه عند أمرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا الَّذي يخافُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه ليس الشَّجاعةُ أن تُعَدَّ شُجاعًا عند النَّاس، لكنَّ الشَّجاعة أن تُعدَّ شُجاعًا عند الله بلزوم أمرِه، وعدم الالتفاتِ إلىٰ أحدٍ من الخلق.

ثمَّ قال: (فمَن تَأَمَّر منهم وجبَ له السَّمعُ والطَّاعةُ كائنًا مَن كانَ)؛ أي مَن وَلِيَ الإمْرةَ - وهي تدبيرُ الحُكمِ والسَّلْطنةِ - وجبَ له السَّمعُ والطَّاعةُ كائنًا مَن كان؛ لقوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**».

رواه البخاريُّ [1] من حديثِ أنسِ بن مالكٍ؛ أي ولو كان مَن يَأْنَفُ الأحرارُ من إمْرَتِه حالَ الاختيار، فإنَّ العَربَ طُبِعُوا علىٰ الأَنَفَةِ من ذلك، فلَمَّا دَخلُوا فِي الإسلام أُمِرُوا أن يُسلِّمُوا لأمرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالسَّمع والطَّاعة لِمَن ولَّاه الله أمرَهم، ولو كان علىٰ حالٍ تَكرهُ العربُ حالَ جاهليَّتِها الانقيادَ لِمن كانتْ تلك حالُه.

ثمَّ قال: (وهي) أي طاعتُهم (فَرضٌ فِي المعروف؛ فلا سمعَ ولا طاعةَ فِي معصيةِ الله)، فإذا دُعِي العبدُ إلىٰ معصيةِ الله لم يُطِعْهم؛ لأنَّ طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُقدَّمةٌ علىٰ

---

(١) رقم (٦٩٣)، (٦٩٦)، (٧١٤٢).

طاعةِ خلقه.

قال: (وإذا رأىٰ منهُ ما يكرَه كَرِه عملَه، ولم ينزِع يدًا مِن طاعةٍ)؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**». رواه مسلمٌ[1] من حديث عَوفِ بنِ مالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، فيُؤمَر العبدُ بأن يَكرَهَ عملَه؛ كما يُنهىٰ عن طاعتِه بالمعصيةِ، لكنَّه لا يَنْزَعُ يدًا من طاعةٍ.

ثمَّ قال: (وقد أُمِرْنا بالصَّبْر علىٰ ما يُكرَه منهم، وأن نُؤدِّي إليهم حَقَّهم، ونسألَ الله حَقَّنَا؛ فلا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه؛ إلَّا أن نَرىٰ كفرًا بواحًا عندنا مِن الله فيه برهانٌ)، فالعبدُ مأمورٌ بأن يصبرَ علىٰ ما يكرَهُ منهم، وأن يُؤدِّي إلىٰ أولئك حقَّهم، وأن يسألَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقَّه، كما فِي حديث عبد الله بن مسعودٍ عند البخاريِّ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ**»[2]، وإذا كان سائِلُنا حَقَّهُم هم؛ فإنَّ حقَّنَا سيسألُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم، وإذا وَكَلْتَ سؤالَك إلىٰ العظيمِ فإنَّ العظيمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَفيلٌ بأن يأخذَ لك حقَّك، فالعبدُ يُؤدِّي إلىٰ هؤلاء حَقَّهم، ويسألُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا لَه مِن حقٍّ.

ثمَّ قال: (وألَّا نُنَازِعَ الأمرَ أهلَه)؛ أي لا ندخلَ معهم فِي مُنازعةٍ ومُشاحَنةٍ فِي تدبير أمرِ السَّلطنة والحُكم؛ لأنَّ هذا إليهم، فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النِّساء:٨٣]، فالأمرُ أمرُ المسلمين فِي العلم والحُكمِ، فالعلمُ للعلماء، والحكمُ للسَّلاطين والأمراءِ، فلا يَجوز للمرءِ أن يُنازِعَهم شيئًا ممَّا يتعلَّق

(١) رقم (١٨٥٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٠٥٢).

بِولايتهم، فهذا الأمرُ هو إليهم، وإنَّما يَبذل إليهم النُّصحَ ويَصبرُ علىٰ ما يَلقىٰ فِي خَاصَّةِ نفسِه أو فِي عامَّة أمر المُسلمين، فهو الَّذي أرشدَ إليه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أحاديث كثيرةٍ.

ثمَّ قال: (ونُهِينا عن سبِّ الأمراء وعَيْبِهم، ولعنِهم)؛ لِسُوء عاقبةِ ذلك، قال أنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نَهَانَا كُبَرَاؤُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَّا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ، وَلا تَعِيبُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا؛ فَإِنَّ الأَمْرَ قَرِيبٌ». رواه ابن أبي عاصمٍ فِي «السُّنَّة» [(١)] وغيرُه، وإسناده صحيحٌ.

والأمراءُ: يعني المُتأمِّرينَ، سواءً سُمِّي المُتأمِّرُ (مَلِكًا)، أو (أميرًا)، أو (رئيسًا)، أو (حاكمًا)، أو (سُلطانًا)، أو غير ذلك، فنُهِينَا عن سَبِّه ولعنِه، لسوءِ عاقبةِ ذلكَ؛ فإنَّ مآلَ ذلك إيغَارُ صدور النَّاس عليه، وإيغارُ صدرِه هو علىٰ النَّاس، وهذه صفةُ شِرار الأئمَّة والملوك، فإنَّ شِرارهم مَن يلعنُهم النَّاسُ ويلعنُونَهم، قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ**». رواه مسلمٌ [(٢)] من حديثِ عوفِ ابنِ مالكٍ.

فإذا وقع النَّاس فِي هذا سلَّط اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بعضَهم علىٰ بعضٍ، إذا فشَا بينَهم لعنُ الأمراءِ وسبُّهم فاعلمْ أنَّ الأمراء يكونُ منهم كذلك أيضًا، فإذا وقع اللَّعن والسَّبُّ والشَّتم بين المسلمين رُعاةً ورعيَّةً وحُكَّامًا ومَحكومين، وأمراءَ ومأمورِين؛ فإنَّ مآلَ

---

(١) رقم (١٠٤٩).

(٢) رقم (١٨٥٥).

ذلك إلىٰ شرِّ العاقبة فِي الدُّنيا والآخرة، فالإنسانُ يحفظُ لسانَه، ويَصُونَه عمَّا نُهِي عنه، فإنَّ النَّهي للتَّحريم، وهذا مِن جملة السُّنَّة المُستقرَّة عند الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

ثمَّ قال: (ومن أذلَّ سلطانَ الله فِي أرضِه أذلَّه الله)؛ أي مَن سعىٰ فِي إذلال مَن جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم الولايةَ فإنَّه يُذَلُّ.

والإضافةُ فِي (سلطان الله) للتَّشريف؛ يعني مَن جعله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حاكمًا، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي أعطاه هذه الولايةَ، وجعَلَه مُتَسلِّطًا علىٰ هؤلاء النَّاس، فمَن مشىٰ لإذلاله أذلَّه الله؛ كما جاء عن حذيفةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيرِه.

فعاقبةُ الخروج علىٰ هؤلاء ومنازعتُهم شرٌّ وَبِيلٌ، ولذلك فِي حديثِ أمِّ سلمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فِي «صحيح مسلم» لمَّا ذكرَ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جورَ الأمراءِ - يعني ظُلمَهم -، فقالوا: أفلا نقاتِلُهم يا رسول الله؟ فقال: «**لَا؛ مَا صَلَّوا**»[1].

وتركُ الصَّلاة إشارةٌ إلىٰ الوقوعِ فِي الكُفرِ البَواح - كما تقدَّم -؛ يعني الكفر الظَّاهر البيِّن، فحينئذٍ يكون له أمرٌ آخَرُ بِشُروطِهِ وقُيودِه الَّتي يُبيِّنها العلماءُ وأهلُ الحِلِّ والعَقْدِ، الَّذين هم رُؤوس النَّاس الَّذين يُعرَفون قبل الفتن لا فِي الفتن، فالَّذي يُعرَف قبل الفِتَن أنَّه مِن رؤوس النَّاسِ هذا الَّذي يُتَّبع، ويَلْزَم المرءُ ما هم عليه مِمَّا أُرْشِدْنا إليه، وأمَّا الَّذي لا يرتِفع رأسُه إلَّا فِي الفتنةِ فهذا ليس مِن رُؤوس النَّاس، ويتَّقِي الإنسانُ مَن لَمْ يُعرَف إلَّا فِي فتنةٍ؛ لئلَّا يقعَ الإنسانُ فيمَا لا تُحمَد عاقبتُه فِي دينِه ودُنياه.

ثمَّ إنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الَّذي نَهانا عن قِتال أئمَّة الجَوْر أمَرَنا بقتال مَن خرجَ

(١) أخرجه مسلمٌ (١٨٥٤).

عليهم فِي الأحاديثِ الَّتي قال فيها الإمام أحمدُ: (صحَّ فِي الخوارجِ عشرةُ أحاديثَ عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)، واستوفاها مسلمٌ فِي «صحيحه»، فهو قد نَهىٰ عن قتال أئمَّة الجَوْر، وأمرَ بقتالِ مَن خرجَ عَليهِم، فالعاقلُ اللَّبيب الَّذي يُؤمِن بالدِّين الَّذي جاء به محمَّدٌ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلمُ أنَّ هذه هي جادَّة السَّلامة، وما عدا ذلك فليس فيه للخلق سلامةٌ ولا أمانٌ؛ وإنْ سمَّاه النَّاس ما سَمَّوه، وإن رَموا مَن خالفهم بما رَموا، فإذا سَمُّوه جَبانًا، أو انبطاحيًّا، أو خانِعًا، أو خاضعًا، أو خائفًا = لم يُبالِ بِهم؛ لأنَّه لا ينظرُ فِي شيءٍ مِن ذلك لا إلىٰ هؤلاءِ، ولا إلىٰ هؤلاء، وإنَّما ينظرُ إلىٰ أمرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالنَّبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الَّذي أرشده إليه، ولذلك أرشدَ النَّبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حذيفةَ فِي الفتنِ إذا تفرَّق النَّاسُ فقال له: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَىٰ أَصْلِ شَجَرَةٍ**»[1]؛ يعني أنْ تشُدَّ بأسنانك علىٰ أصل شجرةٍ.

فإذا قيل: أينَ بيانُ الرَّأي، أين إبداء الموقف، أين إظهار الاستقلاليَّة؟

فالجواب: كلُّ هذه حبائلُ شيطانيَّةٌ، لكنْ هذا دينُ محمَّدٍ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا ثقيلٌ جدًّا علىٰ النُّفوس ولا سيَّما فِي الفِتَن، ولذلك لا تثبتُ قدمُ العبدِ فِي الفتن بعد تثبيتِ الله إلَّا بعِلمٍ راسخٍ قبلَها، أمَّا إذا جاءت الفِتَن ووقعتِ المِحَنِ، وصارت تتجدَّد المسائلُ صَارُوا يبحثون فِي الكُتُب، يقولون: كيف التَّعامل مع هذا؟ هل يُوجَد له شيءٌ فِي الفقه الإسلاميِّ، هل يُمكِن أن يُجرَىٰ كذا لأجل كذا، هل يُفعَل هكذا لأجلِ كذا! هذا علمٌ متجدِّدٌ، إذًا هذا علمٌ غالبًا يكون خطأً لا خيرَ فيه، لكنَّ العلمَ الرَّاسخَ هو العلمُ الصَّحيح الَّذي يحفظُ الإنسانَ من الفتن، ولذلك مِن أعظم منافع العلم: أنَّه يحفظ الإنسانَ مِن

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٠٦) (٧٠٨٤) ومسلمٌ (١٨٤٧) من حديث حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفتنِ.

ليس الفتنةُ الَّتي تخافُها أن تُفْتَن مِن النَّاس فِي نفسِك ومالِك، الفتنةُ الَّتي تخافُها أن تُسلَب التَّوحيدَ واتِّباعَ النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفِي أخبار سفيانَ الثَّوريِّ أنَّه بَكىٰ، فقال له صَاحبُه: بكاؤُكَ هذا خوفًا من الذُّنوب؟ فَأَخَذَ عُودًا مِنَ المَحْمَلِ - أي مِنْ مَرْكَبه علىٰ الدَّابَّة ممَّا علَقَ بِها - فَرَمَىٰ بِهِ، وقَالَ: «إِنَّ ذُنُوبِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ التَّوْحِيدَ»[1]، فهو يخافُ علىٰ نفسِه أن يُسلَب التَّوحيدَ والاتِّباعَ فِي مثلِ هذه الفتن.

ولذلك أوَّلُ فتنةٍ وقعتْ فِي الأرض - وهي عبادة غير الله - فِي قوم نوحٍ كانت بسبب زوال العلمِ، ففي حديث ابن عبَّاسٍ أنَّه - لمَّا ذكر عبادة الخمسة: وُدًّا، وسواعًا، ويعوقَ، ويَغُوث، ونسرًا - قال: «حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَتَنَسَّخَ العِلْمُ؛ عُبِدَتْ»[2].

وفي «صحيح مسلمٍ»[3] من حديث أبي سعيدٍ الخُدريِّ فِي فتنة الدَّجَّال - الَّتي هي أعظمُ فتنةٍ -: «**فَإِذَا رَآهُ المُؤْمِنُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. قَالَ: فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشْبَحُ فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي؟ قَالَ: فَيَقُولُ: أَنْتَ المَسِيحُ الكَذَّابُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّىٰ يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، قَالَ: ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ القِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ. فَيَسْتَوِي قَائِمًا. قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا**

(١) رواهُ أبو نُعَيْمٍ الأصبهانِيُّ فِي «تأريخ أَصبهانَ» (٢/ ٢٩٥)، وَالبيهقيُّ فِي «شُعب الإيمان» (٨٣٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٩٢٠).

(٣) رقم (٢٩٣٨).

بَصِيرَةً»؛ فكيف علمَ؟ بالعلم الَّذي عندَه من صفة المسيح الدَّجال، فالعلمُ حفِظَه مِن الفتنةِ.

فهذا هو الَّذي ينبغي أن يَشْغَل قلبَكَ؛ أن تُفتَنَ فِي دِينَك الَّذي تخسر فيه دنياك وآخِرَتك، أن تقعَ فِي شيءٍ يُبعِدك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به عن جَنابه، ويَرُدُّك عن بابِه، فتَخسرُ الخسارةَ العُظمَىٰ، وأمَّا ما عدَا ذلك فإنَّه ليس شيئًا، لكنَّك إذا قلتَ كلمةً فسُفِكَت بِها دماءٌ، ونُهِبَت أموالٌ، وهتُكِت أعراضٌ، وسقطتْ دُوَلٌ، وحصلَ مَرْجٌ وهَرْجٌ، فتذكَّرْ حديثَ عديٍّ بنِ حاتمٍ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ**»[1]، عند ذلك إذا وقفَ الإنسان هذا الموقف سيعلمُ أيَّ حجَّةٍ تكون له عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

يا إخوان؛ طلَّاب العلم ينبغي لهم أن يَعرِفُوا دينَهم كما جاء به الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الدِّين الصَّحيح الَّذي فِي الكتاب والسُّنَّة، لا بقولِ فلانٍ ولا بفلانٍ، لا من أهل اليمين، ولا من أهل الشِّمال، لكنَّه علىٰ الصِّراط المستقيم.

ويَقتدِي بِسَيْرِ الأكابرِ العلماءِ المعروفين الرَّاسخين مِن الأحياء والأموات، فيسير بسيرهم ويَصبِر علىٰ حاله، ويعلَم أنَّه إذا خرجَ قِيدَ أُنْمُلةٍ فإنَّه يُورِدُ نفسَه الهَلَكَةَ، وأنَّ ذمَّ النَّاس أو مدحَ النَّاس لا يُساوي عند أهل المعرفة بالله شيئًا، فالنَّاس مساكينُ، أحدُهم لا يملكُ قلبَه الَّذي بين جَنبيه، فهو يُحِبُّ فُلانًا تارةً، ويكرَهُه تارةً أخرىٰ، فأيُّ قَلْبٍ تملكُ إذا كان قلبُك يُحبُّ أحدًا تارةً ثمَّ يكرهه تارةً، وربَّما يرجِعُ إلىٰ حُبِّه تارةً أخرىٰ، فإذا

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٤٣).

كان قلبُك الضَّعيف بِهذه المنزلة فاسمع أنَّ الشاعر قال:

قَـدْ سُـمِّيَ الْقَلْـبُ قَلْبًـا مِـنْ تَقَلُّبِـهِ   فَاحْذَرْ عَلَىٰ الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وتحويـلِ

نسأل الله أن يُثبِّت قلوبنا وقلوبكم.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلم أنَّ نجاة العبد فِي هذا الأمرِ هي فِي الاستقامةِ، ورَدِّ الأمر إلىٰ أهلِه مِن العلماء والأمُرَاءِ، والاعتصامِ بالكتاب والسُّنَّة، ولزوم الجماعةِ، وصُحبةِ مَن يُوثَق بِدِينه؛ فإنَّها أمانٌ مِن الفتنِ.

ومِن الممدوح شرعًا: الفرارُ بالدِّين من الفتن، والإكثارُ من العبادة فيها.

وللأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ والجهادِ فضلٌ فِي إنجاءِ المؤمنين.

وفِي إحياء العلمِ وبَثِّه ثباتُ الدِّين والدُّنيا.

وحُسن خاتمةِ العبدِ هي بالموت علىٰ الإسلام والسُّنَّة.

و(نَجْدَةُ المِعْوَان) لِمَن نظر فيما سلف مِن بيانه - وهي وَصِيَّتُه لنفسِه وإخوانِه -:

يَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الْمُيَمِّمُ سَيْرَهُ ... للهِ دُونَكَ نَجْدَةَ الْمِعْوَانِ

سِرْ فِي أُمُورِكَ رَاشِدًا مُتَوَثِّقًا ... بِالشَّرْعِ وَٱحْذَرْ قِعْدَةَ الشَّيْطَانِ

وَٱتْبَعْ كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي ... صَحَّتْ عَنِ الْمُخْتَارِ مِنْ عَدْنَانِ

وَٱخْلَعْ رِدَاءَ الْجَهْلِ وَٱطْرَحْ صِنْوَهُ ... لُبْسَ التَّعَصُّبِ قُبِّحَ الثَّوْبَانِ

وَٱطْلُبْ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ هُمَا هُمَا ... فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ رَاجِحَتَانِ

للهِ أَخْلِصْ وَٱتْبَعَنَّ رَسُولَهُ ... فَهُمَا سَبِيلُ السِّلْمِ وَالْإِحْسَانِ

وَٱصْـدَعْ بِأَمْـرِ اللهِ فِـي أَحْكَـامِــهِ ... وَٱصْبِرْ وَجَـاهِــدْ عُصْبَــةَ الطُّغْيَـانِ
وَٱحْذَرْ شُرُورَ النَّفْسِ إِنْ جَاهَـدتَّهُمْ ... فَالنَّفْــسُ إِنْ تَطْـغَــى فَلِلْخِـذْلاَنِ
وَاللهُ نَـاصِــرُ دِيـنِــهِ فَتَــيَـقَّـنُـوا ... مِـــنْ وَعْـدِهِ فَالصِّــدْقُ لِلرَّحْــمَنِ
تَمَّــتْ وَصِيَّـةُ صَـالِـحٍ وَلِنَفْـسِــهِ ... وَصَّـــى بِهَـا وَالْفَــضْلُ لِلْـمَـنَّـــانِ

تمَّ بحمد الله

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ختم المُصَنِّف - وفَّقه الله - بفصلٍ جامعٍ يدعُو فيه إلىٰ مسعًىٰ آخرَ مِن خير المساعي، وهو بيانُ ما تكون به نجاةُ العبد.

فذكر أنَّ (نجاة العبد فِي هذا الأمر) أي فِي حال الدُّنيا (هي فِي الاستقامةِ، ورَدِّ الأمر إلىٰ أهلِه مِن العلماء والأُمَرَاءِ، والاعتصامِ بالكتاب والسُّنَّة، ولزومِ الجماعةِ، وصُحبةِ مَن يُوثَق بدينه؛ فإنَّها أمانٌ مِن الفتنِ)، فهؤلاء الخمسُ أمانُ العبدِ من الفتن بدلائل الكتاب والسُّنَّة.

فيستقيمُ العبد علىٰ أمر الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هود: ١١٢].

ويَرُدُّ الأمر إلىٰ أهله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النِّساء: ٨٣].

ويعتصم بالكتاب والسُّنَّة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا

تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ٨٣] فِي آياتٍ أُخَر.

ويَصحَبُ مَن يُوثَق بدينِه، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». رواه أبو داودَ [١] والتِّرمذيُّ [٢] من حديث أبي هريرةَ، وإسناده حسنٌ.

ويلزم أيضًا جماعةَ المسلمينَ، فإنَّ لزومَ جماعةِ المُسلمين مِن أعظمِ ما يُحصِّلُ الإنسانُ بِه الأمانَ، كما فِي حديث حذيفةَ المتقدِّم، وفيه أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**» [٣]؛ يعني إذا حصل بين النَّاس فِتنٌ، يُؤمر العبدُ بِهذا.

ثمَّ ذكر أنَّ مِن الممدوحِ شرعًا: الفِرارُ بالدِّين مِن الفتن، والإكثارُ من العبادة؛ فالفِتَنُ إذا تكاثرتْ فالعبدُ مأمورٌ بأن يفِرَّ منها، وفِي حديث أبي سعيد الخدريِّ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**» [٤]، وبوَّبَ عليه البخاريُّ: (**باب من الدِّين الفرارُ من الفتن**).

فمِن إيمان العبدِ: ألَّا يُوردَ قلبَه علىٰ الفتنِ، ولا تَغرَّه نفسُه، وإنَّما يَحبِس نفسَه عنِ الفتن، ولا يدخلُ فِي شيءٍ منها، وكذلك يَستكثِرُ من العبادةَ؛ لأنَّ العبادة هي الحَبلُ الَّذي يصلُ العبدَ بربِّه.

(١) رقم (٤٨٣٣).

(٢) رقم (٢٣٧٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٦٠٦) (٧٠٨٤) ومسلمٌ (١٨٤٧) من حديث حذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاريُّ (١٩) (٣٣٠٠) (٣٦٠٠) (٦٤٩٥) (٧٠٨٨).

وفِي «صحيح مسلمٍ» مِن حديث مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**العِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(١)؛ يعني العبادةَ إذا حصلَ الهَرج والمرجُ، **وأصلُ (الهرجِ)**: الاختلاطُ والاضطرابُ، وأعظمُه: وقوعُ القتلِ، فإنَّ مَن أقبلَ علىٰ العبادةِ يكون بمنزلةِ المُهاجر؛ لأنَّ الَّذي هاجر إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك دِيارَه إلىٰ بلد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الَّذي يعتزلُ الفتنَ ويُقبِلُ علىٰ العبادةِ يَهجُرُ ما عليه النَّاسُ مِن استِنْشَاءِ الكلامِ وجمعِه وبثِّه فِي الفتن، فإنَّ هذه الحالَ تقطعُ قلوبَهم عنِ الله.

قال عبد الله بن عونٍ: «ذِكر النَّاسِ داءٌ، وذِكرُ الله دواءٌ»(٢)، وقال مكحولٌ: «ذِكر الله شفاءٌ، وذِكرُ النَّاس داءٌ»(٣).

ومِن جملة ذِكرِ النَّاس: ما يقعُ فِي الفتنِ مِن جَمْعِها، وذِكْرِ ما قال فلانٌ وما قال فلانٌ، وما بُثَّ فِي المكانِ الفلانِيِّ، سواء فِي الفتنِ الخاصَّة، أو الفتنِ العامَّة، فالعارفونَ بِدِين الله لا يُولُونَ الفتنَ شيئًا؛ وإن قامَ النَّاسُ وقعدوا، فهم يُقبِلُون علىٰ ما يلزمُهم مِن عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا وجدوا نائبًا مِن نُوَّاب إبليسَ يقوم مَقامَه فِي تبليغهم الفِتنَ مَنعُوه وكَبَحُوه.

وفِي أخبار شيخ شيوخِنا محمَّد بنِ إبراهيمَ آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ رجلًا جاء إليه فسلَّم عليه، ثمَّ قال: أمَا بلغكَ أنَّ فُلانًا يتكلَّم فيكَ ويقول كذا وكذا؟! فمنعَه وقطَعَه،

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٩٤٨).

(٢) «سير أعلام النُّبلاء» (٦/ ٣٦٩)، وقال الذَّهبيُّ معلِّقًا: (إي والله! فالعجب منَّا ومِن جهلنَا، كيف نَدَعُ الدَّواء، ونقتحمُ الدَّاءَ؟!).

(٣) «الوابلُ الصَّيِّب من الكَلِم الطَّيِّب» لابن القيِّم (ص١٧٢).

وقال: ألم يجدْ إبليسُ نائبًا له إلَّا أنتَ؟! ثمَّ زجره.

وأمَّا اليوم فيأتِي أحدَنا من يقول له: إنَّ فُلانًا يتكلَّم فيك، فيقول: ماذا يقول؟ فيقول: كذا وكذا، ثمَّ يقول: وماذا يقول أيضًا؟! ثمَّ يستمرُّ المجلس فِي قال وقيل، لكنَّ العارفَ بالله لا يَهمُّه قولُ النَّاسِ؛ لأنَّ النَّاسَ مساكينُ لا يملكون شيئًا، وإنَّما يخافُ ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالخوف من سؤال الرَّحمن أعظم من كلام الإنسان وسوط السُّلطان، فالعارفُ بالله يُقبِلُ علىٰ ما يلزمُه مِن عبادةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وما أحدٌ أُشِيرَ إليه فِي الدِّين والعلم إلَّا وَكان فِي مَبْدإِ أمرِه مَن يتكلَّمُ فيه، هذا الشَّيخ ابن بازٍ، وهذا الشَّيخ ابن عُثيمين، وهذا الشَّيخ الفوزان...، وقد أدركْنا أُناسًا - مِن أهل العلم! - كانوا يتكلَّمون فيهم، وذَابَ أولئك كالمِلحِ، فلا يعرفُهم إلَّا خواصُّ أهل العلم، وأمَّا هؤلاءِ فنشرَ الله عِلْمَهم.

وهذا عبدُ الرَّحمن بنُ حسنٍ - الَّذي له الشُّهرةُ اليومَ - قد كتبَ فيه مَن كتب، وحذَّر الإمام تركي منه، ثمَّ ابنه فيصلُ كذلك، وأنَّه ينبغي له أن يُبعِدَه ... إلىٰ غير ذلك، ثمَّ بقي عبد الرَّحمنُ بن حسنٍ ذِكْرًا وعِلْمًا، وذابَ ذلك كالملحِ، فمَن ظَنَّ أنَّه يسلَم مِن النَّاس فهو مجنونٌ - كما قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالعاقلُ يعرفُ أنَّ الَّذي يجب عليه هو الإقبال علىٰ ربِّه، لا أن يُقطَع بالخلق، قالَ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ العبدَ إذا التفت إلىٰ قُطَّاع الطَّريق قطعُوه)، فإذا الْتفتَّ إلىٰ قُطَّاع الطُّرق قطعُوك.

وأنتَ ماذا تُريد من النَّاس؟ عليكَ أن تُريدَ ما عند الله، فأقبِلْ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالأمر أمرُ الله، والدِّين دينُ الله، والحكمُ حكمُ الله، والملكُ لله، وإنْ كانَ للنَّاسِ فِي الدُّنيا شيءٌ ففي الآخرةِ ليس لهم شيءٌ؛ الحكمُ يومئذٍ لله، هو الَّذي يرفعُ وهو الَّذي يخفِض، وهو الَّذي يُعطِي وهو الَّذي يمنع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيجبُ علىٰ العبد أن يُقبِل علىٰ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُشغَل بأحدٍ مِن الخلقِ، ومِن جملتِه: ما ذكره هنا مِن الإكثارِ من العبادة فِي زمن الفتَنِ.

ثمَّ ذكر المُصَنِّف أنَّ (للأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر والجهادِ فضلٌ فِي إنجاء المؤمنين)، فحال السُّوء الَّتي تَعْرِض للمسلمين فِي بلدانِهم وأزمانِهم ممَّا يدفعها عنهم قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

ففي «صحيح البخاريِّ» مِن حديث النُّعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا...**»، ثمَّ ذكر حال النَّاس فِي الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وفيه أنَّه قال: «**فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ**» - يعني بلا أمرٍ ولا نَهيٍ - «**وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[1].

وفِي «صحيح مسلم» من حديث عقبةَ بن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٩٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٩٢٤).

فالجهاد شَعِيرةٌ من شعائر الله، وهو دِينٌ مِن دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبه عِزُّ المسلمين فهو باقٍ بعزِّ عزيزٍ، أم بذلِّ ذليلٍ، فلا يظنَّ أحدٌ أنَّ هذه الشَّعائر الدِّينيَّة تزول وتخفَىٰ وتذهب، فإنَّ دين الله لا يخفىٰ، لكنَّ الشَّأن فِي صدق العبدِ فِي إرادتِها، فمِنَ النَّاس من يُسمِّي قتالَه (جهادًا) وهو يقاتل لأجل الدُّنيا، أو لأجل الرِّئاسة، أو لأجلِ المالِ، أو غير ذلك مِن مَقاصدِ النُّفوس؛ وإنْ ألْبسَها لِباسَ الإسلامِ، فلا عِبْرةَ بالشِّعارات، بلِ العبْرةُ بالحقائقِ، بأن يكونَ الجهادُ لله، ولذلك قال الأحنفُ بنُ قيسٍ لمَّا وقع ما وقع - يعني من الأمر الَّذي صار فِي الصَّدر الأوَّل من الخلافة -: خَرَجْتُ وَأَنَا أُرِيدُ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَحْنَفُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أُرِيدُ نَصْرَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (يَعْنِي عَلِيًّا). قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أَحْنَفُ؛ ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إِذَا الْتَقَىٰ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»[1]، قال: فنفعني الله بِهذه الكلمةِ ورجعتُ.

تيقَّنْ أنَّه كان هناك مَن يَؤُزُّ الأحنفَ فِي الدُّخول فِي القتال، لكنْ أخرجه الله عَزَّوَجَلَّ بنصح النَّاصحِ، وأنَّ ذاك الَّذي أزَّه كان يقول لهُ: (هذا من الجهاد فِي سبيل الله، ونصرةٌ للمَظلومين، ورفعٌ للظُّلم عمَّن أُخِذَت حقوقُهم...)، ولكن هُدِي الأحنفُ بأن تيسَّر له أبو بكرةَ فنصحه بما نصحه، ولا يستغربُ الإنسانُ؛ هذا وُجِد فِي الزَّمن الفاضل، فكيف فِي الزَّمن الخامل.

وروىٰ ابن أبي شيبةَ فِي «مُصنَّفه» عَنْ أَبِي صَالِحٍ الحَنَفِيِّ قَالَ أنَّه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ حُذَيْفَةَ وَإِلَىٰ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ وَهُمَا جَالِسَانِ فِي المَسْجِدِ، وَقَدْ طَرَدَ أَهْلُ الكُوفَةِ

(١) أخرجه البخاريُّ (٣١) (٦٨٧٥) (٧٠٨٣) ومسلمٌ (٢٨٨٨).

سَعِيدَ بْنَ العَاصِ [١]، فَقَالَ: مَا يُجْلِسُكُمْ وَقَدْ خَرَجَ النَّاسُ؟ [٢] فَوَاللهِ إِنَّا لَعَلَىٰ السُّنَّةِ [٣]، فَقَالَا: «وَكَيْفَ تَكُونُونَ عَلَىٰ السُّنَّةِ وَقَدْ طَرَدْتُمْ إِمَامَكُمْ؟! وَاللهِ لَا تَكُونُونَ عَلَىٰ السُّنَّةِ حَتَّىٰ يُشْفِقَ الرَّاعِي، وَتَنْصَحَ الرَّعِيَّةُ»، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: فَإِنْ لَمْ يُشْفِقِ الرَّاعِي وَتَنْصَحِ الرَّعِيَّةُ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «نَخْرُجُ وَنَدَعُكُمْ» [٤].

فهذه السُّنَّة؛ أنَّ الرَّعيَّة ينصحون والحاكم يرفقُ، وأمَّا ما عدا ذلك - وإن سُمِّي (السُّنَّة) و(الدِّين) - فليس بدينٍ، ولذلك رأيْنَا فتنًا عظيمةً يأتِي فيها أناسٌ إلىٰ المشايخ وتسمع كلامًا شديدًا، فتجد المشايخ لا يُولونُهم شيئًا، ولا يتكلَّمونَ؛ لأنَّ ما يقع من النَّاس مِن حرارةٍ في قُلوبِهم وضيقٍ فِي صدروهم لأمرٍ لا يحتمل المُراجعةَ والمُرادَّةَ، لكن يبقىٰ علىٰ الحقِّ الَّذي يعتقده.

وهذا الحقُّ الَّذي عرفتَه: مِن دين الله، فليس مُتعلِّقًا بزمانٍ ولا مكانٍ، أين ما كنتَ دينُك دينُك، وأمرُك أمرُك، فِي أيِّ زمانٍ وفِي أيِّ مكانٍ، فدين الله واحدٌ لا يُوجَد فِي دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دِينَان، بل هو دينٌ واحدٌ، لكنَّ الشَّأن أن تعرفَ دينَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك صِرْنا اليوم بينَ مَن يَغمِصُ الجهادَ حَقَّه، ويُريدُ نزعَه مِن ديوانِ الإسلام، وبَين

---

(١) والتَّاريخ يعيدُ نفسَه الآن، سبحان الله!

(٢) ومثلُه يُقال اليوم: أنتم جالسون هنا يا مشايخ فِي المساجد، وتُعلِّمون، وتدرِّسُون، وقد أخرج النَّاس أميرَهم!

(٣) يعني نحن الَّذين علىٰ الحقِّ، وليس أصحاب النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانظرْ للجراءة! وقد صِرْنا نراها الآن، فإنَّك تجد مِن النَّاس مَن يتَّهم العلماء بِهذا، بل يأتِي إلىٰ المساجدِ ويقولُ هذا فِي وجوههم، وهذا من سوء الأدب وقِلَّة الدِّيانة.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبةَ في «المصنَّف» (٣٨٣١٥).

مُنْفَلِتٍ يُقْدِم علىٰ شيءٍ يسمِّيه (جِهادًا) والجهاد منه بَراءٌ.

ثمَّ قال: (وفِي إحياء العلم وبثِّه ثباتُ الدِّين والدُّنيا)، فمتىٰ بقي العلمُ فِي النَّاس بقي فيهم دينُهم وحُفِظَت دنيَاهم، وإذا زال العلمُ زال الدِّين والدنُّيا؛ قال ابن شهابٍ: «كان مَن مضىٰ مِن علمائنا يقول: الاعتصامُ بالسُّنَّة نجاةٌ، والعلم يُقبَض سريعًا، فَنَعْشُ العلمِ[1] ثباتُ الدِّين والدُّنيا، وذهابُ العلماء ذهابُ ذلك كلِّه»[2].

ولذلك؛ مِن أعظم مُقوِّمات حفظ التَّنمية فِي البلاد: الحفظُ علىٰ العلم الشَّرعيُّ؛ بأن يبقىٰ العلم الشَّرعيُّ فِي البلاد، فثباتُه ثباتٌ للدِّين والدُّنيا معًا، وإذا ذهبتِ العلوم الشَّرعيَّةُ سيذهبُ الدِّين والدُّنيا.

هذا حكمُ الله الَّذي لا يتخلَّف، فإذا وقرَ هذا في قلب طالبِ العلمِ رأىٰ أنَّ رِباطه فِي حِلَق العلمِ تعلُّما وتعليمًا من القُرَب الَّتي يتقرَّب بِها إلىٰ الله لحفظِ دين المسلمين.

ثمَّ ختم المُصَنِّف بقوله: (وحُسنُ خاتمةِ العبدِ هي بالموت علىٰ الإسلام والسُّنَّة)؛ أي أحسنُ حالٍ يُختَم بِها للعبد عند موتِه أن يُميتَه الله علىٰ الإسلام والسُّنَّةِ - أماتنا الله وإيَّاكم علىٰ الإسلام والسُّنَّة.

ثمَّ ختم المُصَنِّف بأبياتٍ ينصحُ فيهَا، يقولُ:

(يَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الْمُيَمِّمُ سَيْرَهُ ... للهِ دُونَكَ نَجْدَةَ الْمِعْوَانِ

سِرْ فِي أُمُورِكَ رَاشِدًا مُتَوَثِّقًا ... بِالشَّرْعِ وَٱحْذَرْ قِعْدَةَ الشَّيْطَانِ[3]

(١) يعني إحياءُ العلم وبثُّه.

(٢) رواه اللَّالَكَائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجَماعة» (١٣٦).

(٣) يعني احذر ما يَرصدُه الشَّيطان مِن اجتلابِ الخلقِ هنا أو هنا.

وَٱتْبَـعْ كِتَـابَ اللهِ وَالـسُّـنَنَ الَّتِـي صَـحَّتْ عَـنِ الْمُخْتَـارِ مِـنْ عَدْنَـانِ
وَٱخْلَعْ رِدَاءَ الْجَهْلِ وَٱطْرَحْ صِـنْوَهُ[1] لُبْـسَ التَّـعَـصُّـبِ قُبِّـحَ الثَّـوْبَـانِ
وَٱطْلُبْ لِقَلْبِـكَ هِجْرَتَيْنِ هُمَا هُمَا فِـي كِفَّـةِ الْمِـيزَانِ رَاجِـحَـتَـانِ
للهِ أَخْـلِـصْ وَٱتْبَـعَـنَّ رَسُـولَـهُ فَهُـمَـا[2] سَـبِيلُ السِّـلْمِ وَالْإِحْسَـانِ
وَٱصْـدَعْ بِأَمْـرِ اللهِ فِـي أَحْكَـامِـهِ وَٱصْبِرْ وَجَـاهِـدْ عُصْبَـةَ الطُّغْيَـانِ
وَٱحْذَرْ شُرُورَ النَّفْسِ إِنْ جَاهَـدتَّهُمْ فَالنَّفْـسُ إِنْ تَطْـغَـى فَلِلْخِـذْلَانِ[3]
وَاللهُ نَـاصِـرُ دِيـنِـهِ فَتَـيَـقَّـنُـوا مِـنْ وَعْـدِهِ فَالصِّـدْقُ لِلرَّحْـمَـنِ[4]
تَمَّـتْ وَصِيَّـةُ صَـالِـحٍ وَلِنَفْـسِـهِ وَصَّـى بِهَـا وَالْفَـضْلُ لِلْـمَـنَّـانِ)

أسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يوفِّقنا جميعًا لمَحَابِّه ومراضيه.

والحمد لله رَبِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبدِه ورسولِه محمَّدٍ، وآله وصحبِه أجمعين.

---

(١) يعني أخاه.

(٢) أي سبيل الإسلامِ وإحسانِ العبد.

(٣) يعني أنَّ العبد إذا قام فِي نصرة الحقِّ ينبغي أن يَتخوَّف علىٰ نفسِه الوقوعَ فِي الطُّغيان، فمِن النَّاس من يقوم فِي نصرة الحقِّ فيقع فِي الطُّغيان، فيظلِمُ هذا، ويعتدي علىٰ هذا، ويَبْهَتُ هذا، فيعاقبُه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالخذلان، فنصرةُ الحقِّ تكونُ بالحقِّ، والقيامُ بأمر الله يكونُ بما أمرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(٤) أي أنَّ الله لا أصدقَ منه؛ كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النِّساء]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النِّساء].

فالله قد تكفَّل بنُصرة دينِه، فهذا يقينٌ عند المُوقِنين.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ
ليلة الجمعة الثَّاني عشر من شهر ذي القَعدةِ
سنةَ ثمانٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ
في جامع العَقيل بمدينة الطَّائفِ

